شعر المحدثين والمجددين العباسين
في ضوء النقد العباسى

دكتور

عبد الكريم أحمد فراج

أستاذ الادب والنقد المساعد بكلية اللغة العربية

جامعة الأزهر - إيتاى البارود

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حظى الأدب العربى على إمتداد العصور بإهتمام العلماء والنقاد القدامى ، وبلغ من إهتمامهم به أنهم كانوا يحرصون على سلامة لغته من الدخيل ، حتى تحتفظ بأصولها ومقوماتها ، فكانوا يسجلون على الشعراء أخطاءهم فى العصر العباسى ، وذلك بحكم التداخل بين العناصر الأجنبية والعربية ، حفاظا على النقاء اللغوى ، ومن ثم توقفوا بالشعر فى الاحتجاج باللغة ، وفى الإستشهاد به عند حد معين من الزمن ، ومن الشعراء .

وجاءت الدراسات الإدبية الحديثة وصورت هذا الموقف للنقاد ، وجعلته من قبيل التعصب للقديم ، ورفض الحديث .

وبمطالعة آراء هؤلاء النقاد وبيان وجهات نظرهم ، تبين أنهم لا يرفضون الحديث دائما ، ولا يتعصبون للقديم دائما ، ولكنهم وضعوا النقاء اللغوى شرطا أساسيا للفصل بين قديم الشعر وحديثه ، وما يحتج به لغويا ، وما لا يحتج به ، وما يستشهد به ، وما لا يستشهد به ، فكانت لهم آراء تقوم على رفض بعض القديم ، لإخلاله بشرط النقاء ، وتأييد الحديث لتوافر هذا الشرط ، وكان هذا هو المعيار فى هذا الأمر ، وليس الوقت والزمن كما ذهب أصحاب هذه الدراسات .

وهذا ما يكشف عنه هذا البحث إن شاء الله – تعالى – إنصافا لهؤلاء العلماء النقاد ، وإحقاقا للحق.

ويتكون هذا البحث من مقدمة ، وتمهيدا وأربعة مباحث وخاتمة وفهرس المصادر والمراجع والموضوعات .

تمهيد

اهتمام العلماء القدامى بالعربية وآدابها .

اهتم منذ أواخر العصر الأموى عدد لا بأس به – من علماء البصرة والكوفة بجمع ألفاظ اللغة ، وأشعار العرب فى الجاهلية والإسلام ، ولعل من أهم ما دفعهم إلى ذلك ، حاجة الشعوب الأجنبية التى دخلت فى الإسلام إلى تعلم لغة القرآن الكريم ، فضلا عما كان من شيوع اللحن على ألسنة الموالى المستعربين ، وبعض العرب أنفسهم ، بسبب اختلاطهم بالعناصر الأجنبية ، وما حدث من ضعف السلائق العربية ، بسبب تحضرهم ، وقد نشأ الكثير منهم فى حجور أمهاتهم من الإماء ، ومن ثم ضعفت عندهم الملكة اللغوية ، وأخذ اللحن يفشو فى كلامهم .

لهذا كله أخذ هؤلاء العلماء على عاتقهم جمع ألفاظ اللغة العربية وأشعارها ، حتى لا تزول فى خضم اللغات الأخرى المستعربة ، وتسلم لها مقوماتها الأصيلة ، وتطرح عنها شوائب اللهجات القبلية ، وقد اشترطوا على أنفسهم ألا يأخذوا اللغة من عربى حضرى ، وأن يرحلوا فى طلبها إلى باطن الجزيرة العربية ، حيث ينابيعها الصافية وكانوا يبغون من وراء ذلك تقويم الألسنة ، واكتساب السليقة اللغوية السليمة ، والتقاط المادة اللغوية من الأفواه مباشرة .

والمطالع لكتاب "الألفاظ والحروف " لـ " أبى نَصْر القارَابىّ " [1] .

---

[1] المزهر فى علوم اللغة وأنواعها لجلال الدين السيوطى طـ: ١٢٨ مكتبة صبيح .

يجد فى أوله :

" كانتَ قريشَ أجود العرب انتقادًا للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعا ، وأبينها إبانة عما فى النفس. والذين عنهم نقلت اللغة العربية ، وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم :

قيسَ وتميمَ وأسدَ ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ، ومعظمه ، وعليهم اتكل فى الغريب ، وفى الإعراب ، والتصريف ، ثمّ هذيلَ وبعضَ كنانة " ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم ، وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط ، ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا منْ " لخْمُ " ، ولا من جُزَامْ ، لمجاورتهم أهلْ مصر والقبطَ ، ولا منْ قضاعةَ وَ غسانْ وأيادَ لمجاورتهم أهلْ الشام ، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، ولا منَ تغلبْ واليمنَ فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانَ ، ولا منْ بكرَ لمجاورتهم " للقبط " و"الفرس " ..... ولا من حاضرة الحجازَ، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأ وا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم ".

وقد تعاقبت أجيال من هؤلاء العلماء فى جمع اللغة والشعر ، وكان "أبو عمرو بن العلاء " على رأس الجيل الأول فى "البصرة" ، وكان " خلف الأحمر" و" الأصمعى " و " أبو زيد الأنصارى " و " أبو عبيدة " من أشهر أفراد الجيل الثانى . وكان " محمد بن سلام الجمحى " من أهم أفراد الجيل الثالث من علماء اللغة فى "البصرة ".

أما من علماء اللغة فى " الكوفة " فقد كان " حماد الراوية " على رأس الجيل الأول – و " أبو عمرو الشيبانى " و " ابن الأعرابى " من أشهر أفراد الجيل

الثانى ، و " أبو عبيدة القاسم بن سلام " من أهم أفراد الجيل الثالث .

وقد أدى جميعهم دورا بارزا فى تحول السليقة العربية من البادية إلى شعراء الحضر ، وذلك بجمعهم للغة ، والشعر الجاهلى والإسلامى ووضع المقاييس لهما ، وقد ظل هؤلاء العلماء طوال العصر يبعثون فيهم الإيمان بأن الشعر القديم هو القدوة المثلى ، واحتذى ذلك اللغويون الشعراء ، ومنهم : " حماد الرواية " و " الخليل بن أحمد " و" خلف الأحمر " و " الأصمعى " ، وقد عرض هؤلاء اللغويون على شعراء الحاضرة النماذج الشعرية العويصة ، ىالمليئة بالغريب ، إلى جانب النماذج السهلة حتى جعلوها غاية لهم[1] .

وفى هذا يقول "الجاحظ "[2] : " ولم أو غاية النحويين إلا كل شعر فيه إغراب ، رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب ، أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج ".

وتمثل " المفضليات " "للمفضل الضبى " و " الأصمعيات " للأصمعى أهم المجموعات الشعرية القديمة ، وهما تزخران بالغريب .

---

[1] راجع تاريخ الأدب العربى (العصر العباسى الأول) د/ شوقى ضيف : ١٢٠ وما بعدها دار المعارف .

[2] البيان والتبيين : ١٩٦/٣ .

ويقول " دكتور شوقى ضيف "[1] مبينا مكانة اللغويين فى خدمة الشعر ، وما يبذلونه من جهد فى هذا الشأن :

" لا نبالغ إذا قلنا إن اللغويين لم يكادوا يتركون قصيدة ولا مقطوعة جيدة لشاعر جاهلى أو إسلامى إلا سجلوها ودونوها وفسروها وشرحوها ". ومن ثم صارت اللغة سهلة منقادة فى متناول الشعراء وغيرهم .

ومما لا يدع مجالا للشك أن اللغويين كانوا سدنة الشعر فى هذا العصر ، وحراسا له ، فمن نوهوا باسمه طار وبلغ الآفاق ، ومن أهملوه خمل ذكره .

وكان اللغويون كالصيارفة فإذا أراد الواحد من الشعراء أن ينشد قصيدة فى أى محفل من المحافل فلابد أن تمر عليهم ، ويحصل صاحبها على موافقة من هؤلاء اللغويين ، إن استحسنوها ، وإلا فلا ، كما حدث مع " مروان بن أبى حفصة " عندما أراد أن ينظم قصيدته " طرقتك زائرة فحى خيالها " فى " المهدى " ذهب إلى أحد علماء اللغة وهو " يونس النحوى " ، فقال له[2] : قد قلت شعرا أعرضه عليك ، فإن كان جيدا أظهرته ، وإن كان ردينا سترته ، وأنشد القصيدة فأعجب بها " يونس " وقال له : " إنها برينة من العيوب ".ولما أنشدها " المهدى " أعجب بها وزحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط إعجابا بما سمع : ثم قال لـ " مروان " : كم هى ؟ قال " مروان " مائة بيت ، فأمر له بمائة ألف درهم ، فكانت أول مائة ألف درهم أعطيت لشاعر فى أيام بنى العباسى[3] .

---

(1) تاريخ الأدب العربى (العباس الأول) : ١٣٩ .
(2) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ١٠ : ٨٢ دار الكتب .
(3) السابق : ١٠ : ٨٨ .

وقد عقد " المزربانى " فصلا بين فيه كيف كان الشعراء يعرضون أشعارهم على اللغويين ليجيزوها لهم ، فهم بحق قضاة الشعر ، وصيارفته .

فما هو ذا " الخليل بن أحمد " يقول لـ " ابن مناذر "[1] .

" إنما أنتم معشر الشعراء تتبع لى ، وأنا سكان السفينة !! إن قرظتكم ، ورضيت قولكم نفقتم ، وإلا كسدتم ".

وهذا إن دل على شئ فإنه يدل على الدور الفعال الذى كان يبذله اللغويون فى الحفاظ على العربية ومقوماتها . كما يدل أيضا على مكانة هؤلاء اللغويين ، الذين كانوا يقعدون بالمرصاد للشعراء فى ذلك الوقت ، صونا للعربية من الدخيل ، وتخليصا لها من كل شائبة ، ورغبة فى سيادة جو من النقاء اللغوى حتى يتسنى لهم الإستشهاد بأشعار سليمة نقية خالية مما يشينما .

---

(1) السابق ١٦/١٧ الساسى .

المبحث الاول

موقف قدامى النقاد من هذا الشعر فى ضوء الدراسات الحديثة

صورت هذه الدراسات موقف أولئك النقاد من نحاة ، ولغويين ورواة من شعر المحدثين ، ومن حركات التجديد فى الشعر العربى على أنه موقف التعصب للقديم أسلوبا ، وبناء فنيا ، بعد التسامح بعض الشئ فى رواية أشعار هؤلاء المحدثين .

وأخذ أرباب هذه الدراسات على عاتقهم أن يثبتوا هذا القصور ، ويوضحوا أن هؤلاء النقاد لم يستندوا فى تناولهم لهذه القضية إلا لعامل الزمن فقط ، وهذا يعنى أنهم يرفضون الحديث لمجرد حداثته ، ويقبلون القديم لمجرد قدمه .

وقد ألقى هؤلاء الدارسون بهذا التصور ، وبهذه المسئولية على عاتق النقاد ، وقد كان ذلك نتيجة لنزعة المحافظة على الشعر القديم عندهم وقد ألقوا باللائمة عليهم فى هذا الشأن ، وأخذوا يسوقون الأدلة والبراهين ، والنصوص التى يستندون إليها فى دعواهم وفى تصوراتهم فى أبحاث شتى.

وهذه النصوص تؤكد إخلال هذه الأبحاث بشروط القراءة الصحيحة اللازمة لفهم النقد العربى القديم .

ولكى نتعرف إلى ذلك نسوق جانبا من النصوص والنماذج التى يحمل بعضها الدلالة على إحترام بعض النقاد للقديم دون النيل من شعر المحدثين والمجددين ، وبعضها يحمل الإشارة إلى مآخذ معينة ليست مقصورة على شعر المحدثين ، والبعض منها قد لا يشير إلى شئ من ذلك على الإطلاق .

وقد أشار " نكلسون " فى كتابه[1] إلى أن المتقدمين من اللغويين والرواة قد استندوا إلى عامل الزمن فى الاستدلال على التفوق الشعرى ، فما كان متقدما فى الزمن يدل على التقدم والتفوق فى الشعر ، وما كان متأخرا كان منحطا ، وفصلوا بينهما بظهور الإسلام .

ومما يؤيد ما ذهب إليه إشارته فى بعض تعليقاته إلى عبارة " أبى عمرو بن العلاء " التى أعلن فيها أنه ما كان ليفضل أحدا على " الأخطل " الشاعر الإسلامى المعروف – لو أنه قد أدرك يوما واحدا من الجاهلية ، وفى ذلك يقول[2] : " لو أدرك " الأخطل " يوما واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً " . وقد جعل " نيكلسون " من " ابن قتيبة " أول ناقد يسوى بين القديم والمحدث ، ويقبل الشعر على أساس ما فيه من ميزات لا على أساس زمنه وعصره . وذكر فى موطن آخر أن ذلك الناقد قد حث على أن يقوم المحدثون على أساس جمالى وليس على أسس تاريخية أو لغوية . وهذا يعنى إلحاق تهمة التعصب ضد شعر المحدثين بسائر النقاد فيما قبل هذا الناقد . ولم يكن موقف " الدكتور طه حسين " بعيدا عن هذا ، فقد أكد فى مجموعة مقالات له بعنوان " القدماء والمحدثون "[3]

---

(1) التاريخ الأدبى للعرب . وقد صدرت الطبعة الأولى منه ١٩٠٧م .
(2) النقد المنهجى عند العرب د/ محمد مندور :٧٤ مكتبة نهضة مصر .
(3) نشرت هذه المقالات الأسبوعية فى جريدة السياسة ما بين عامى (١٩٢٢- ١٩٢٤)م.

أن العرب كانوا أحرارا فى الحياة المادية ، محافظين على الحياة الأدبية ، وأن من كان يجرؤ من الشعراء على إنكار هذه المحافظة ، ويحاول تحرير الشعر قليلا أو كثيرا ، كان يتعرض لسخط الأئمة وعلماء الدين ، وأن أولئك الأئمة والعلماء كانوا - بطبيعة منازلهم الدينية - حريصين على القديم ، أعداءً لكل جديد ، وكانوا أيضا مضطرين إلى الإحتفاظ لا بقواعد اللغة وأصولها فحسب ، بل بألفاظها وأساليبها أيضا ، وهذا من شأنه أن يجعل موقف الشعراء المجددين يصاب بالحرج - كشأن موقف الفلاسفة المجددين - وقد تعرض الصنفان لألوان من الاضطهاد كالحبس والضرب ، والنفى وغير ذلك ، من ضروب الاضطهاد وقسم الناقد " طه أحمد إبراهيم "[1]

النقاد القدامى قسمين :

الناصرين للجديد والمتعصبين للقديم ، وهذا ما كشف عنه فى قوله :

" وأخص الناس الذين كانوا يتعصبون للقدماء ، ولا يكادون يقرون بإحسان لمحدث هم النحويون واللغويون ".

فهؤلاء لم يحفلوا كثيرا بشعر المحدثين ، هذا الشعر الذى كان وليد الحضارة ، فلم يتمشى كلية مع الروح العربية ، ولا مع الصياغة العربية ، ولم يخل من اللحن فى إعراب ، أو إشتقاق أو وزن ، فضلا عن أمرهم جدا وهو حاجتهم إلى الشاهد والندويين ، وقلة ثقتهم بما يأتى به المحدثون .

---

[1] تاريخ النقد الأدبى عند العرب منذ العصر الجاهلى إلى القرن الرابع الهجرى : ٩٨ دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط١ ١٤٠٩ هـ .

وساق المؤلف " أبا عمرو بن العلاء " نموذجا لذلك ، ووصفه بالتعصب الشديد للجاهليين ، حيث كان لا يرى الشعر إلا لهم ، ولا يرى من بعدهم شيئا ، وقد غالى فى ذلك مغالاة صرفته إلى النظر إلى المتقدم بعين الجلالة ، وذلك لتقدمه ، وإلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، وبالغ فى ذلك حتى أقام الموازنة على أساس العصر لا على الشعر كما سبق القول .وتفضيله للشعر الجاهلى لم يكن لأسباب فنية من صدق وإحساس ، أو جودة عبارة ، أو نحو ذلك مما نحن فى حاجة إليه ، وإنما كان لتقدمه وسبقه زمنيا .

يقول (ابن قتيبة)[1] :

كان (أبو عمرو بن العلاء) يقول فى أشعار كبار الإسلاميين : [2]

" لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته " والمحدث فى قوله هذا هو شعر " جرير " و" الفرزدق " وأمثالهما وهم من كبار الشعراء الإسلاميين ، وقد وصف شعرهم بأنه محدث ومن كان هذا شأنه مع الإسلاميين فأحرى به ألا يسلم بفضل لمولد " .

والمولد هنا : يراد به الشعراء الجدد الذين امتزج نسبهم بعنصر أجنبى . وقد سار النقاد على هذا النهج من الزهد فى الشعر المحدث ، مع إيثار الشعر القديم فى القرن : الثانى والثالث الهجريين .

---

(1) الشعر والشعراء : ٢ ط٣ عالم الكتب ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م .
(2) تاريخ النقد الأدبى عند العر طه إبراهيم : ٩٨ دار الكتب العلمية بيروت .

وقال (أحمد أمين) [1]

" وكان لكل من المحافظين والأحرار أثر بين فى الأدب ، فأثر الأحرار ميل بعض الشعراء إلى التحرر من القديم والحملة عليه ، كما يظهر فى بعض قصائد " أبى نواس " ، وأثر المحافظين تخوف كثير من الشعراء أن يخرجوا على التقاليد القديمة ، فيثيروا سخطهم ونقدهم ".

وذكر الدكتور " محمد مندور " وجهة نظره التى كشف فيها عن سيره فى نفس الإتجاه .مؤكدا حرص علماء اللغة على الشعر القديم ، حيث كانوا يتخذونه حجة فى تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف ، فقال مبينا رغبة هؤلاء العلماء فى صون اللغة وحفظها من العجمة[2] :

" لقد جاء العصر العباسى ، وأخذ العرب يجدون فى جمع تراثهم الروحى ، وكان من الطبيعى أن ينصرف أول جهدهم إلى المحافظة على لغتهم ، من العجمة التى أخذت تتسرب إليها بعد الفتوحات ، وعلى سلامة تلك اللغة يتوقف فهمهم لمصادر دينهم ، وهو أعز ما يملكون ، ولذا حرص علماؤهم على تدوين الشعر القديم ، يتخذونه حجة فى تفسير القرآن والحديث ، ولم يكن يشغلهم إذ ذاك جمال ذلك الشعر قدر ما شغلتهم صلاحيته للإستشهاد ، فاتصال الشعر بالدين هو السبب الأكبر فى الإنتصار للقديم ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إمتد إلى الشعراء أنفسهم ، إذ لم يروا بدا لكى يرى عنهم شعرهم ، وينتشر من أن يحاكوا الشعر القديم لائى أسلوبه .

---

(1) النقد الأربى : ٤٠٣ طـ ٥ مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٣م .
(2) النقد المنهجى عند العرب : ٧٠مكتبة نهضة مصر ومطبعتها .

فحسب بل فى بنائه الفنى كذلك وكان العلماء باللغة ، والنحو ، ورواية الأدب ممن يعتمدون على القديم قد " وقفوا أمام هؤلاء المحدثين رصدا يعدون عليهم أنفاسهم ويميزون بين الحار منها والبارد ، فإذا أحسوا بنفس جديد خنقوه فى أول تردده مخافة أن تستطيل به الحياة "[1] .

ويبدو مما سبق أن الشعراء المحدثين لم يقفوا عند حد ما أملته عليهم الحضارة والمدنية الجديدة التى كانوا يحيونها ، وإنما ساروا فى ركب الرواة ، وعلماء اللغة الذين كانوا يعتزون بالقديم وذكر " الدكتور محمد مصطفى هدارة " [2] فى بحثه " مشكلة السرقات فى النقد العربى " دراسة تحليلية مقارنة . موضوع الخصومة بين القدماء والمحدثين ، وأثار فيه إلى أثر الإسلام فى الحيوات العربية ، وفى تطور حالتهم لإنتشارهم فى مختلف البقاع المتعددة الثقافات والحضارات ، وقد استطاع العرب أن يتكيفوا مع هذه البيئات الجديدة ، ومسايرة الحياة فيها .

وإن كان التطور الفكرى سار رويدا رويدا ، وذلك يحكم تمسك هؤلاء العرب ببداوتهم ، وارتباطهم بأمجاد وطنهم ، وما خلفه أجدادهم من تراث أدبى وفكرى ، وبخاصة الشعر ، فقد ظل يجرى على القديم دون تطور أو تجديد سوى التوسع فى الموضوعات التى استحدثت بحكم تلك الحياة الجديدة دينيا وسياسيا ، وإجتماعيا ، وفكريا وثقافيا .

---

[1] بلاغة أرسطو بين العرب واليونان د.ابراهيم سلامة : ٣٠٦ط٢ مكتبة الأنجلو المصرية ١٣٧١هـ ١٩٥٢م .
[2] راجع : ٢٠٨، ٢٠٩ مكتبة الأنجلو المصرية .

أما من حيث نظام القصيدة وأسلوبها ، والأصول الفنية الموروثة والمعروفة بـ" عمود الشعر " فقد حافظ عليها العرب ، ولعل هذا راجع إلى أن " العصر الأموى " كان عصر جمع وتدوين لآثار السلف ، ومن ثم كانت هذه الأفكار هى المثل الأعلى بالنسبة للعرب الذين كانوا ما يزالون يتعصبون لعروبتهم ، وماضيهم ، ثم تغير الوضع بعد ذلك ، فجاء المولدون الذين كانوا يتقنون العربية ويتعصبون لقوميتهم ، ثم تغير الوضع السياسى بعد ذلك بسقوط دولة بنى أمية وقيام " دولة بنى العباس " بسواعد الفرس والأعاجم ، مما نجم عنه انتقال الخلافة من " دمشق " إلى " بغداد " ، وترتب على ذلك تطور الأدب والشعر العربى ومسايرته لذلك التطور فى الحيوات المختلفة ، ولو لم يكن الأمر كذلك لا تهم الشعر العربى بالجمود والتوقف وعدم مسايرة ركب الحياة ومستجداتها .

وذكر أيضا " الدكتور هدارة " انقسام الأدباء حول الشعر العربى عند تحول المجتمع العباسى من القديم إلى الجديد إلى قسمين :

الأول : يدافع عن القديم ويتعصب له .

والثانى : يتركه ويقر كل جديد .

أما الذين يتعصبون للقديم فهم رواة الشعر وعلماؤه ، وأما الذين يقرون الجديد ويتعصبون له فهم الشعراء الذين لديهم الجرأة ، والشجاعة والثورة على القديم ، والاصطدام بالرواة ، وهم الفئة المهيمنة إذ ذاك على أذواق الناس وفهمهم لطبيعة الشعر .

وذكر "الجرجانى "[1] أن " أبـا ريـاش القيسـى " الراويـة كـان يتحـامل علـى المحدثيـن ، وبخاصـة " أبـو تمـام " ، و " البحـتـرى " ، حتـى إن نسـخ ديوانيهما قلت فى وقته ؛ لقلة الرغبة فيهما . ولعل السر فى هذا التحـامل مـن قبل الرواة على المحدثين ، وعـدم الإستشـهاد بأشـعارهم مـرده إلـى خروجهم على " عمود الشعر " والأصول الفنية المروثة بالنسبة لنهج القصيدة .

" فإسـحاق الموصلـى" لا يعـد " أبـا نـواس " شيئا ؛ لأنـه (ليس علـى طريـق الشعراء)[2] .

" وابن الأعرابى " يقول بعد سماعه لشعر " أبى تمـام "[3] : " إن كـان هذا شعر فما قالته العرب باطل " فكان لا يعجبه شعر " أبـى تمـام " ولا شـعر " أبى نواس " وغيره مـن المحدثيـن . وأورد " طـه إبراهيـم "[4] أن المحدثيـن حاولوا التجديد فى الحدود التى رسمها القدماء ، ومع ذلك فقد تعارضوا معهـم واصطدموا بهم،فبدلا من افتتاح القصائد بذكر الأطلال أراد "أبو نواس" – وهـو المقيـم فـى بغـداد – أن يستهل مدائحـه بـالخمر ، والندامـى ومجـالس الشـراب ، ومـال غيره إلـى ذكـر النعيـم ، والقصـور ، والريـاض والـورود وغيرها من الأزهار .

---

(1) الوساطة : ٥١ .
(2) الموشح : ٤٠٨ .
(3) الموازنة : ٢١ مع اختلاف يسير فى بعض الألفاظ .
(4) راجع تاريخ النقد الأدبى عند العرب : ٩٢ ، ٩٣ .

والمطالع لكتاب " النقد المنهجى عند العرب "[1] يرى وجهة نظر صاحبه فى أن هذه الدعوى من قبل " أبى نواس " تعد محاذاة للقديم فى الواقع . والمحاذاة أخطر من التقليد ، فـ " أبو نواس " حافظ على الهياكل القديمة للقصيدة العربية، مستبدلا ديباجة بأخرى فضلا عن أن دعوته كانت مشوبة بروح الشعوبية ، والغض من شأن العرب وتقاليدهم ، كما فى قصيدته :

دع الرسم الذى دثرا ∴ يقاسى الريح والمطرا

وقوله :

دع الأطلال تسفيها الجنوب ∴ وتبلى عهد جدتها الخطوب

كما أنه لم يساير مذهبه إلى النهاية ، بل كان يعود إلى مذاهب القدماء ، ترضية لممدوحه ، كما فى قصيدته :

حتى الديار إذ الزمان زمان ∴ وإذ الشباك لنا حرى ومعان

وقوله :

أربع البلى إن الخشوع لباد ∴ عليك وإن لم أخنك ودادى

وقد فند " دهدارة " هذا الكلام ، ورد على ما زعمه "مندور" وكشف عن تجديد " أبى نواس " وخروجه على " عمود الشعر " فقال :[2] " والواقع أن دعوة " أبى نواس " هذه لم تكن دائما مشوبة بروح الواقعية ، ويتضح لنا ذلك فى قصيدته :[3]

---

(1) د. محمد مندور : ٥٩ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٨م .
(2) مشكلة السرقات فى النقد العربى د. مصطفى هدارة ٢١٢ وما بعدها .
(3) ديوان أبى نواس: ٦٩٨ طـ مطبعة مصر ١٩٥٣ م .

ما لى بدار خلت من أهلها شغل ∴ ولا شجانى لها شخص ولا طلل

وفيها يقول :

لا الحزن منى برأى العين أعرفه ∴ وليس يعرفنـــى ســهل ولا جبـل

لا أنعـــت الـــروض إلا مـــا رأيت به قصرا منيفا عليـه النخـل مشـتمل

فهاك من صفتى إن كنت مختبرا ∴ ومخبـــرا نفـــرا عنـا إذا سألوا

وأما إنه لم يساير دعوته إلى النهاية فذلك أمر لـم يكـن منـه منـاص ؛ لأن الرواة كانوا سيحملونه حتما إذا ساير دعوته فى مدائحـه ، وستمتنع عنـه صلات الممدوحين ؛ لأن الممدوح يدفع المال علـى قـدر سيرورة الشـعر فـى مدحه ، ومن يهيمن على سيرورة الشعر غير الرواة ؟! .

وأما إن " مندورا " لا يرى فى دعـوة " أبـى نـواس " أى تجديـد فـأمر يدعو إلى العجب ، وإلا ففيم كان تحامل الرواة عليه ، واتهـامهم لـه بـالخروج عن العمود والمألوف من شعر العرب ؟! .

الواقع أن تجديد " أبى نـواس " لـم يكـن يقتصـر علـى إحـلال وصـف الخمر محل وصف الأطلال فى أول القصائد ، ولكنه خرج فعلا علـى "عمـود الشعر" فى ألفاظـه ومعانيـه وأوزانـه فـى قصـائده البعيـدة عـن شـعر المـدح ، وبخاصة هذه القصائد التى كان الشاعر ينطق فيها مع سجيته ، وطابعه الفنـى دون حدود ترهقه ، أو قيود تثقله " .

وفى هذا يقول صاحب " أعلام الكلام "[1] مشيرا إلى خرم " أبى نواس " للقياس " وأما " أبو نواس " فأول الناس فى خرم القياس ؛ وذلك أنه ترك السيرة الأولى ، ونكب عن الطريق المثلى ... وخالف فشهر وعرف ، وأغرب فذكروا ستظرف ، والعوام تجار هذه الأعلاق ، وأسواقهم أوسع الأسواق" .

ويبدو من هذا أن " ابن شرف " يشير إلى الشعر الذى علقه العوام ، وهو الشعر الذى كان ينطلق فيه الشاعر مع سجيته وطبعه بغض النظر عن " عمود الشعر " أو خط سير القصيدة . وجاء " أبو تمام " بعد ذلك ، وكان الشغل الشاغل للنقاد ، وذلك بخروجه على " عمود الشعر " من ناحية الصياغة ، والتماس البديع .

ويبدو مما سبق ما ذكره الدارسون المحدثون من أقوال فى اتهام النقد العربى القديم فى بيئة الرواة اللغويين ، والنحاة الذين كانوا نقاد الشعر وصيارفته فى أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل الثانى ، وقد تعصبوا للقديم ضد الشعر الحديث ، ورفضوا الإستشهاد به .

ومن المعلوم أن اللغويين سيطروا على سوق الشعر العباسى ، وتمسكوا بالمثل الشعرى القديم تمسكا ملحوظا .

---

(1) أبو عبد الله محمد بن شرف القيروانى : ٢٢ مطبعة النهضة المصرية : نشر مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٢٦ م .

جعل الكثيرين منهم يسقطون الشعراء العباسيين ، فـ " أبو عمرو بن العلاء " كان يختم الشعر بـ " ذى الرمة " ، والرجز بـ " رؤبة " ، وكان " الأصمعى " يختم الشعر " بابن ميادة " و" ابن هرمة " ، وأحتدا بهما من شعراء " نجد " و " الحجاز " الذين أدركوا الدولة العباسية .[1]

وقد أسند أصحاب تلك الدراسات الحديثة فى قولهم من تعصب قدامى النقاد ضد شعر المحدثين ، وبخاصة أصحاب التجديد منهم كـ " بشار " و " أبى نواس "- إلى عدة مبررات وأقوال تنسب إليهم .

فـ " أبو عمرو بن العلاء " ، وهو المعروف بتعصبه ضد كل جديد ومناصرته للقديم كان ينعى على المحدثين خروجهم على الأصول الفنية الموروثة وهى المعروفة بـ " عمود الشعر " ، ولا يرى الشعر إلا للجاهليين.

فيقول بشأن المحدثين : [2]

" إنهم كل على غيرهم ؛ إن قالوا حسنا فقد سبقوا إليه ، وإن قالوا قبيحا فمن عندهم " .

وسبق لنا أن ذكرنا مقولته بالنسبة للشاعر الإسلامى " الأخطل " .

وكان " أبو عمرو بن العلاء " لا يحتج بأشعار الإسلاميين ، وقد سماهم محدثين ؛ لذا لم يرو أشعارهم .

---

(1) الأغانى : ٢٧٣/٤ دار الكتب .
(2) العمدة : ١ : ٦٩ دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

ولم تختلف وجهة نظر " ابن الأعرابى " عن سابقه فى احتقار شعر المحدثين ، والإشادة بشعر الأقدمين ، فكان يقول فى شعر " أبى تمام "[1] :

" إن كان هذا شعرا فكلام العرب باطل " وقد سبق ذلك .

وروى " الصولى " عن " أبى عمرو بن أبى الحسن الطوسى " أنه قال :[2]

" وجه بى أبى إلى "ابن الأعرابى" ، فقرأت عليه من أشعار " هذيل " ، ثم قرأت أرجوزة " أبى تمام " على أنها لبعض شعراء " هذيل " :

وعاذل عذلته فى عذله ∴ فظن أنى جاهل من جهله

حتى أتممتها فقال :

" اكتب لى هذه ، فكتبتها ، ثم قلت : أحسنة هى ؟ قال : ما سمعت بأحسن منها ، قلت : إنها لـ " أبى تمام " ، فقال خرق خرق " .

وقد شبه " ابن الأعرابى " شعار المحدثين بالريحان يشم ويرمى، كما شبه أشعار القدامى بالمسك والعنبر فى عدم فتور رائحته الزكية " فقال .[3]

" إنما أشعار هؤلاء المحدثين - مثل أبى نواس وغيره - مثل الريحان يشم يوما ويذوى فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر ، كلما حركته ازداد طيبا " .

---

(1) الموازنة : ٢١ .
(2) أخبار أبى تمام للصولى : ١٧٥ ، ١٧٦ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
(3) تاريخ النقد الأدبى عند العرب : ٩٩

وحكى " أبو عبدالله التميمى " قال [1] : كنا عند " ابن الأعرابى " فأنشده رجل شعر " أبى نواس " أحسن فيه ، فسكت ، فقال له الرجل : أما هذا من أحسن الشعر ؟ قال : بلى ، ولكن الديم احب إلى "

وكان موقف " الأصمعى " وكان سابقا " ابن الأعرابى " أشد قوة وتمسكا بالقدماء من صاحبه من ضد المحدصين وشعرهم ، فقد أنشده " إسحاق بن إبراهيم الموصلى " قوله :[2]

هل إلى نظرة إليك سبيل و فيروى الصدى ويشقى الفليل
إن ما قل منك يكثر عندى وكثير ممن تحب القليل

فقال " الأصمعى " لمن تنشدنى ؟ فقال لبعض الأعراب ؟ فقال : هذا والله هو الديباج الخروانى ، فقال : إنهما لليلتهما ، فقال لا جرم ، والله إن أثر الصنعة والتكلف بين عليهما "

" ومثل هذا الظلم وقع فعلا ، وعانى منه الشعراء كثيرا ، والذى يهمنا من أمره أن " رد الفعل " ضد الصنعة ، وضد الحداثة قد وقع فعلا وأثر تأثيرة بالرجعة إلى الوراء ليستمعو إلى شعراءالطبع والسليقة ، والذى يأخذ المعانى ويجتذيها لا يترك لها فى النفوس حلاوة ما يورده الأعرابى " [3]

وقد اجتمع " ابن مناذر " الشاعر فى مأدية مع " خلف الأحمر" فقال لخلف: يا أبا محرز إن يكن " النابغة " و " امرؤ القيس " و " زهير " قد ماتوا فهذه

---

[1] السابق : ٩٩
[2] الموازنة : ٢٤
[3] بلاغة أرسطو : ٣٠٧ .

أشعارهم مخلدة ، فقس شعرى إلى شعرهم ، واحكم فيه بالحق ، فغضب خلف ، ثم أخذ صفحة مملوءة مر قافرمى بها عليه فملأه " [1]

وذكر الرواه أن " ابن مناذر " كان يقول لأبـى عبيدة " [2] " اتق الله وأحكم بين شعرى وشعر "عدى بن زيد" ، ولا تقل ذاك جاهلى وهذا عباسى ، وذاك قديم وهذا محدث ، فتحكم بين العصريين ، ولكن احكم بين الشـعريين ، ودع العصبية " وكان " الخليل بن أحمد " يقول لابـن منـاذر)[3] : (إنمـا انتـم معشر الشعراء تبع لى ، وأنا سكان السفينة ، إن فرطتكم ورضيت قولكم نفقتم وإلا كسدتم " . وقد سبق ذلك .

وعلى أساس هذا التعصب للقديم رسم علماء اللغة طريقان يسير عليـه الشعراء ، ولا يخرجون عنه ، وفى هذا يقول " الأصمعى " [4]

" وطريق الشعراء هو طريق شعراء الفحول من مثل " امرئ القيس" والتشبيب بالنسـاء ، وصفـة الخمـر والخيل والحـروب والافتخـار " ومسـتحقا للإعجاب ، وموضعا للتقدير ، وإذا ما ابتعد شاعر فى طريقته ، موسما أحسن فيها وأجاد ، ومن ثم كان " المفضل الضبى يضـع من شـعر " عمـر بـن أبـى ربيعة " فى الغزل ويقول :[5]

---

[1] تاريخ النقد الأدبى عند العرب : ٩٩ - الأغانى ١٧ : ١٠ - ١٢ السادسى
[2] السابق : ٩٩
[3] الأغانى : ١٧:١٦ ط الساسى
[4] فحولة الشعراء : ٤٢ ت د/ محمد خفاجى ، د طه الزيتى
[5] الموشح :٣٢١

" إنه لم يرق كما رق الشعراء ؛ لأنه ما شكا من حبيب هجرا ، ولا تألم لصد، وأكبر أوصافه لنفسه ، وتشبيهه لها ، وأن أحبابه يجدون به أكثر مما يجد بهم ، ويتحسرون عليه أكثر مما يتحسر عليهم " .

والذى ينعم النظر فى الأقوال التى استند الرواه فى رفضهم لأشعار المحدثين ، يدرك أن " عمود الشعر " ونهج القصيدة ، والأصول الفنية الموروثة السبب فى تحامل الرواة على المحدثين من الشعراء ؛ لخروجهم عليها ، وإذا كان هذا هو المحك الذى يعتمد عليه هؤلاء الرواة فى ادعائهم على المحدثين فلابد من التحقق من صحة هذا الأمر ؛ لمعرفة ما إذا كان الشعراء المحدثون قد خرجوا فعلا على عمود الشعر ونهج القصيدة العربية الموروثة أو لم يخرجوا ؟ .

معلوم أن العربى الجاهلى أو الإسلامى كان يفتتح مديحة بالنسيب والوقوف بالأطلال ، وهذا شئ من بيئة وطبعة ، فإذا ما وصف الناقة والرحلة ومشقتها فان ذلك مقبول منه ، لأنه يعبر عن أمر واقعى ، ويصور فيه حالة نفسية قامت به ، وهذة تتمشى مع الشاعر الجاهلى والإسلامى ؛ لأنها تصور كثيرا من حالاتهم ، فضلا عن صدقها فى التصوير أمام الشعراء الذين أقاموا فى بغداد مع " الرشيد " "والأمين كأبى نواس" فكيف يستهلون مدائحهم بأطلال لم يكونوا يعرفونها ، ولم يقفوا بها ، وناقة لعلهم لم يركبوها ، فالديباجية فى الصحراء تختلف عن الديباجية فى الحضر والمدن ، وتختلف أيضا عن ديباجة من يقيم على ضفاف دجلة " بين ترف ولهو وقصور ورياض .

وكما أن الديباجة الجاهلية صادقة ؛ لأنها تصور الحياة الجاهلية البدوية ، فينبغى أن تكون ديباجية الشعر الحديث صادقة أيضا ؛ لأنها تصور الحياة الحضرية الناعمة . فلابد من الانصراف عن هذه المطالع القديمة والتفكير فى شئ جديد ملائم ، وليس الأمر فى حاجة إلى مجهود عميق[1] . يقول " طه إبراهيم "[2] :" نحن نحاكى القدماء فيما صنعوا ، ونأخذ ديباجة للشعر من حياتنا الحاضرة . وهنا مال " أبو نواس " إلى أظهر الأشياء فى حياته ، فاستمد منها ديباجة شعره : الخمر و الندامى ومجالس الشراب . وهكذا خلق المحدثون من الموالى ديباجة حضرية لا تتصل بسبب إلى شبه جزيرة العرب ، ولا تحن لحبيب ، ولا تبكى على طلل ، أوجد واديباجة جديدة هى مرآة للحياة فى " بغداد " وفى " الكوفة " ، وفى الحواضر الإسلامية المترفة ، وفتنوا بها ، وروجوا لها ودعوا إليها ".

وقد صادف هذا هوى وقبولا فى نفوس بعض الشعراء ممن ليس لهم صلة بشبه الجزيرة العربية ، ولا حبيب ولارفات ، ومن ثم صار الشعر تتنازعه ديباجتان مختلفتان فى المنهج .

---

(1) راجع تاريخ النقد الأدبى عند العرب : ٩٢ ، ٩٣
(2) السابق : ٩٣

المبحث الثانى

موقف هؤلاء النقاد من هذة الدعوى

بين الحقيقة والخيال

إن الناظر فيما سبق يرى العديد من المقولات التى صدر عنها الدارسون المحدثون فى القول بأن النقاد العرب وقفوا من نزعات التجديد لدى الشعراء العباسيين موقف المقاوم ، وليس هذا صوابا دائما . وأمر كهذا يتطلب إعادة النظر فى موقف هذا الفريق من النقاد ، على أساس نظرة عامة وشاملة ، بعيدا عن الأمور القليلة التى تتمثل فى تلك النصوص المشوشة التى استند عليها هؤلاء الدارسون فى تعصبهم للقديم " وتقليلهم من شأن الحديث . ومن خلال هذة النظرة الشاملة يمكن القول بأن أعلام ذلك النقد لم يكونوا بهذه الصورة ، وهذه الدرجة من التشيع للقديم والتعصب له ، ومناهضة الجديد ، فالأمر على العكس من ذلك ، فكان الجديد محل قبولهم ، حثوا عليه ، ونبهوا على من سولت له نفسه أن يستعير من غيره وصار يقال : إن هذا الشاعر أو ذاك يفضل على غيره وذلك لتجديده وابتكاره ، ومعنى هذا أن هناك خطا متصلا فى النقد العربى ليس عماده التعصب ضد الحديث وتقديس القديم ، وإنما يعتمد على قبول التجديد والترحيب به ، وهذا ما تكشف عنه القراءة المتأنية والمجردة من أية أفكار مسبقة عن ذلك النقد .

ومن هؤلاء الأعلام النقاد " أبو عمرو بن العلاء " الذى كان من أشد الناس تعصبا للقديم ، ومع هذا رأيناه يشيد بـ " الأخطل " وهو شاعر إسلامى ، ويجعله محط إعجابه وتقديره .

وكان الحذاق يقولون [1] "الحول فة الجاهلية ثلاثة ، وفى الإسلام ثلاثة متشابهون : (زهير والفرزدق والنابغة والأخطل والأعشى وجرير) " .

وقد أعجب " أبو عمرو بن العلاء " بـ " جرير " وهو شاعر إسلامى فشبهه "بالأعشئ "[2] كما شبه " الأخطل " باللنابغة ، و"الفرزدق" "بزهير"[3].

وكان " أبو عمرو بن العلاء " يجلس إلى " جرير " ويستمع إلى شعره وهو يمليه ، ثم يقوم بروايته وتصحيحة ، كما كان يقزم بدور الرواية ؛ لما يدلى به الشاعر من أحكام نقدية على غيره من الشعراء .

قال " أبو عمرو بن العلاء " : ' كنت قاعد ا عند " جرير ' وهو يملى :

ودع أمامة حان منك رحيل .:. إن الوداع إلى الحبيب قليل

فمرت به جنازة فقطع الإنشاد وقال : شيبتنى هذة الجنائز قلت فلأى شئ تشتم الناس ؟ قال :

" يبتدؤننى ثم لا أعفو " ، قال : وكان يقول : "أنا لا أبتدى ولكن أعتدى "[4]

وقد سلك نفس الملك مع "الفرزدق " "وذى الرمة " الذى روى شعره ووصفه بأنه فصيح ، وأعجب باستعارته فى قوله : [5]

---

(1) العمدة : ١ : ٧٢
(2) الشعر والشعراء : ١٠٩
(3) السابق : ١١٣
(4) السابق : ١٠٩
(5) ديوان ذى الرمة : ٢٠٧ تصحيح وتنقيم كارليل هنرى . عالن الكتب

أقامت به حتى ذوى العود فى الثرى ∴ ولـف الثريـا فـى ملاءته الغجر

وهذة الروايـة تصحـح مـا أشـبع عـن ذلـك الرجـل مـن احتقـار لشـعر الإسلاميين من ناحية ، ومن ناحية أخرى تؤكـد أن الرجـل كـان علـى معرفـة بأشعار مخضرمى الدولتين – الأموية والعباسية [١]

بل إنه كان على معرفة بشعر " بشار " وهو أحد رواد البديع ، وزعيم المحدثين ، وكان من وجهة نظره أبدع الناس ، وأمدحهم ، وأهجاهم بيتا [٢] أما " الأصمعى " فكان – " كأبى عمرو " يروى للأسلاميين ، ويفضلهم أحيانـا على الجاهليين ، فقد أعجب " بابن هرمه " ، وختم به الشعراء [٣] ، وقد روى شعره ، ووثقه حتى كان هذا الشعر يراجع على روايته .

كما اختتم الشعراء ببشار الذى روى شعره [٤] ، وتتبع أولياتـه وأشـار بقدرته على التشبيه ، فقال :" إنه كان يشبه الأشياء بعضها ببعض ، فيأتى بمـا لا يقدر البصراء أن يأتوا بمثله " .

" وكـــان الأصمعـــى يعجـــب بشـــعر بشـــار لكـــثرة فنونـــه ، وسـعة تصرفـه ، ولطفـه ، وكـان يشـبهه "بالأعشـى" و"النابغـة" ، ويشـبه مروان "بزهير" و"الحطيئة " [٦]

---

[١] كأبى حية النميرى ، وابن المولى . وأبو حيـة هو الهيثم بن الربيـع مـن قيس عيلان شاعر من مخضرفى الدولتين توفى سنة ١٦٠ هـ

[٢] راجح الشعر والشعراء : ١٧٧

[٣] فحولة الشعراء تحقيق خفاجى ، طه الزينى : ٥٣

[٤،٥] السابق : ٥١ والمطالع للأغانى يرى العديد من أخباره .

[٦] فحولة الشعراء : ٤٨

ومما تجدر الإشارة إليه أن تشبيه هذا الشاعر أو ذاك بشاعر أو أكثر من الجاهليين ، أو المخضرمين لا يعنى هذا أن ذلك الفريق من النقاد كان يفضل من المحدثين ، أو يقبل من يسير على النهج القديم ، ويجارى القدماء فى كل شئ كما هو شائع لدى هؤلاء الدارسين فى العصر الحديث.

وهذا لا يتأتى مع تفضيل " الأصمعى " لبشار "

وهو محدث – على مروان – وهو قديم ، وتعليله لذلك حينما سئل : أيهما أشعر ؟ فأجاب : " بشار "[1] فسئل عن السبب فى ذلك ،فقال :" لأن مروان سلك طريقا كثر من يسلكه ، فلم يلحق من تقدمه ، وشركه فيه من كان فى عصره ، وبشار سلك طريقا لم يسلك ، وأحسن فيه وتفرد به ، وهو أكثر تصرفا ، وفنون شعر ، وأغزر وأوسع بديعا ، و"مروان" لم يتجاوز مذهب الأوائل " . وورد عن أبى حاتم " قال [2]: (سمعت الأصمعى وقد عاد إلى "البصرة" من "بغداد" ، فسأله رجل عن "مروان" فقال : أهل "بغداد" قد ختموا به الشعراء ، وبشار أحق بأن يختموهم به من مروان فقيل له : ولم ؟ فقال : وكيف لا يكون ذلك ، وما كان مروان فى حياة بشار يقول شعرا حتى يصلحه له بشار ويقومه) .

وكان الأصمعى يعجب بشعر بشار لكثرة فنونه وسعة تصرفه –كما سبق– ويقول : كان مطبوعا لا يكلف نفسه شيئا متعذرا [3]

---

[1] السابق : ٥١ الموشح : ٣٩١ ، ٣٩٢

[2] فحولة :٥١

[3] السابق : ٤٨

وقال "الأصمعى" [1] " قلت لبشار : إن الناس يعجبون من أبياتك فى المشورة ، فقال لى : يا أبا سعيد : " إن المشاور بين صواب يفوز بثمرته أو خطأ يشارك فى مكروهه ، فقلت له : أنت –والله– فى قولك هذا أشعر منك فى شعرك ".

وقال عن "السيد الحميرى "[2] : " قبحه الله ما أسلكه لطريق الفحول ، لولا مذهبه ، ولولا ما فى شعره ما قدمت عليه أحدا من طبقته " وأنشد بيتين "للعباس بن الاحنف "، وقال [3] :"إنهما أشعر ما يحفظ للمحدثين ".

والمطالع " لطبقات الشعراء " [4] يرى ما أوردة المؤلف من قصة تبدأ بمنادمة الأصمعى " للفضل بن يحيى البرمكى " ، وينشد الأصمعى بيتا لأبى نواس فى الخمر ، ثم ينشد القطعة كاملة تزولا على رغبة الفضل ، ثم يقول عن " أبى نواس " : " إنه .... بمكان من الأدب ..... وهو من الشعر بالمحل الذى قد علمته ، أليس هو القائل :

ذكرتم من الترحال يوما فغمنا ∴ فلو قد فعلتم صبح الموت بعضنا

ثم ينشد القصيدة بأكملها وهى فى مدح "الفضل" ومقدمتها ألصق بالمقدمات الجديدة : تقوم على الغزل ، وترفض الرحلة على الإبل ، وتنص على السير فوق التعال .

---

[1] السابق : ٥١ ، ٥٢

[2،٣] فحولة الشعراء : ٥٢، ٥٣

[4] ابن المعتز

والمتتبع لما أورده " ابن قتيبة " [1] فيما يتصل بالمقدمة التقليدية ، والتى لم يتمسك هو نفسه بها يدرك أى خروج صريح على ما عد من التقاليد اشتملت عليه قصيدة "أبى نواس " التى تمثل بها "الأصمعى " الذى صرح فى أكثر من موضع بكثرة روايته من شعر "أبى نواس " ، واهتم بتسجيل بعض ما سبق إليه من معان .

والمتصفح " لزهر الآداب " [2] يرى طعن " ابن الأعرابى على " أبى نواس " ورجوعه عن ذلك إلى كناية شعره ، وروايته .

وفى الأغانى [3] يبدو إعجاب "ابن الأعرابى " الشديد "بإسحاق الموصلى " وذلك بمدحه ، وذكر أدبه ، وحفظه وعلمه واستحسان قوله .

هل إلى أن تنام عينى سبيل ∴ إن عهدى بالنوم عهد طويل

غاب عنى من لا أسمى فعينى ∴ كل يوم وجدا عليه تسيل

وكان " خلف الأحمر " [4] لا يشق له غبار فى النقد ، ولا يجرى معه أحد فى حلبة هذه الصناعة ، وكان يفضل بعض النماذج المحدثة على الشعر الجاهلى ، ففضل "لامية مروان "على "لامية الأعشى " . وممن ساروا على هذا النهج فى إنصاف شعر المحدثين : " الجاحظ " وابن قتيبة "، و"المبرد" ، "وابن المعتز " ، فقد كان الجاحظ ينكر غلو المتعصبين على المحدثين [5] ، وكذلك كان ابن قتيبة فى مقدمة كتابة " الشعر والشعراء "

---

(1) راجع الشعر والشعراء ٦ ،٧

(2) الحصرى مج١ ج١ : ٢٨٦ ، ٢٨٧ ط٤ دار شرح " د/زكى مبارك". الجيل للنشر والتوزيع والطباعة بيروت – لبنان

(3) الأغانى جـ:١٦ : ٢٤٢ وما بعدها

(4) العقد الفريد لابن عبد ربه ٣ : ٤٠٢ط التجارية

(5) الحيوان : ٣ : ٦٢ تحقيق وشرح عبد السلام هارون دار إحياء التراث العربى بيروت – لبنان

وقد أنصفت هذة الطبقة المحدثين إنصافا ظاهرا فيقول "الجاحظ" بشان "أبى نواس " :[1]

" وما رايت أحدا كان أعلم باللغة من " أبى نواس " ولا أفصح لهجة مع حلاوة ومجانية الإستكراه " .

ويقول " أبو عمرو الشيبانى " العالم اللغوى [2] : " لولا ما أخذ فيه " أبو نواس " من الرفث لاحتجبنا بشعره ، لأنه محكم القول " ويقول " ابن رشيق "[3] : " إنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين ابتدأ هذا بناء فأحكمة وأتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه ، فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن ، والقدرة ظاهرةعلى ذلك وإن خشن "

ويقول " د. شوقى ضيف " مبينا أن رفض شعر الحداثة لحداثتة خطأ فى التقويم [4] " ولا شك أن إهدار اللغويين لشعر العباسيين بسبب حداثته خطأ فى التقويم ، إذ الجودة الفنية لا تقاس بالقدم والحداثة ، والشعر الجيد جيد فى كل زمان ومكان ولكن من الحق أنهم – بهذا الموقف – جعلوا نماذج الشعر القديم بالقياس إلى العباسيين تصيح كالأمهات الغاذية ، فكلهم نهلوا من أثدائها ، وتغذوا بها غذاء سرى فى قلوبهم . وتمكن من نفوسهم ، ويأخذنا العجب حين نقرأ لهؤلاء الشعراء فنراهم عرباتامين وكأنهم فصلوا توا من الجزيرة ومع هذه العروبة اللغوية القوية فيهم كان اللغويون لا يستشهدون بأشعارهم فحافة أن يحدث اضطراب فى النموذج الشعرى القديم ، وحتى يحتفظوا له بكل ما يمكن من صحة وسلامة ودقة "

---

(1) أخبار أبى نواس لابن منظور : ٦ط مصر

(2) طبقت الشعراء لابن المعتز : ٢٠٢ دار المعارف

(3) العمدة ١ : ٧٠

(4) تاريخ الادب العربى (العصر العباسى الأول) : ١٤١ ومات بعدها دار المعارف

ويمضى " دكتور ضيف " فى حديثة موضحا مدى تربص اللغويين بهؤلاء الشعراء ، ملتمسا لهم العذر فيما حدث فيقول[1] :

وقد مضوا يعدون عليهم سقطاتهم ، وهى ليست سقطات بالمعنى الصحيح ، إذ هى فى كثرتها إما ضرورات رآها الشعراء العباسيون فى الشعر القديم فقاسوا عليها ، وإما لغات شاذة رأوها أيضا فى هذا الشعر ، وظنوا أن من حقهم مجاراتها ، وإما اشتقاقات وأبنية استحدثوها على ضوء المقاييس اللغوية التى تلقنوها ، واقرأ فى كل ما نثره " المرزبانى " فى " الموشح " من هذه السقطات فستراه قلما يعد وهذه الوجوه الثلاثة "

من هذا ما أخذه "الأخفش" على " بشار " من اشتقاقه فى بعض أشعاره كلمتى :' الوجلى والغزلى " من الوجل والغزل ظنا منه أن هذا من حقه وإن لم يسمع عن العرب .

وكان " أبو نواس " من أكثر الشعراء العباسيين مآخذ [2] وهذه مردها إما إلى ضرورات شعريه ، وإما إلى بعض لهجات عربية .

وفى هذا يقول " ابن قتيبه "[3] : " وقد كان أبو نواس " يلحن أشياء من شعره لا أراه فيها إلا على حجه من الشعر والمتقدم وعلى علة بينة من علل النحو ، منها قوله :

فليت ما أنت واط ∴ من الثرى لى رمسا

---

(1) السابق ٣٨٤ ، ٣٨٥

(2) الموشح ٤١٤ وما بعدها

(3) الشعر والشعراء ٧٩٤ دار المعارف

أما تركه الهمزة فى " واطئ " فحجته فيه أن أكثر العرب تترك الهمز ، وأن "قريشا " تتركه وتبدل منه ، وأما نصبه " زمسا " فعلى التمييز ، ألا تراه قال : " فليت ما أنت واط من الثرى لى " فتم الكلام وصار جواب ليت فى " لى " ، ثم بين من أى وجه يكون ذلك فقال : " رما " كما تقول فى الكلام :

" ليت ثوبك هذا لى " ثم تقول " إزارا " ؛ لأن جواب " ليت " صار فى قولك " لى " وصار الإزار تمييزا " .

وقد عقب على هذا " د. شوقى ضيف " قائلا[1]

" ولعل من الغريب أن يقف " يوهان فك " فى كتابة " العربية " عند هذه الأبيات وما يماثلها مما أخذ على " أبى نواس " ، وعند أخرى تشبهها لشواء آخرين ، متخذا منها دليلا على مخالفة العباسيين لقواعد العربية وكأنه لم يقرأ ما نقلناه عن " أبى قتيبه " . ولو أنه أنعم النظر فيما سجله الموشح على شعراء الجاهلية والإسلام من مثل هذه الأحرف لعرف أن العباسيين لم يخرجوا على قواعد الفصحى فى الصورة التى رسمها لهم اللغويون ، وأن كل ما هناك أنهم قاسوا أشعارهم على أشعار الأقدمين فأجازوا لأنفسهم ما كان يجيزه أسلافهم من بعض الضرورات ، وبعض الشواذ ، وهم – فى ذلك – يتابعونهم ويصوغون على إرث منهم " .

---

[1] تاريخ الأدب العربى (العصر العباسى الأول) ١٤١ ، ١٤٢

ومما تجدر الإشارة إليه أن تحديد القديم والحديث لم يخضع لمعيار واحد فى نظر هؤلاء النقاد العلماء ، فأحيانا نجد القديم عند أحدهم حديثا عند غيره " فالأخطل وجرير والقرزدق " قدماء عند الكثير من الرواة والنقاد الذين رووا شعرهم ، واختلفوا حول أفضليتهم على حين يعد هؤلاء محدثين عند " أبى عمرو وأبى العلاء " الذى لا يحتج بشعرهم ، ولا يرضى للناس أن يرووه على الرغم من كثرته وحسنه .

يقول " الأصمعى "[1] : " جلست إلى "أبى عمرو " عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت إسلامى : قال : وقال مرة : " لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت أن أمر فتياننا بروايته ، يعنى شعر " جرير " "والقرزدق" وأشباههما " . وقد سبق بيان ذلك . ولعل الذى يتحدد به القديم من الحديث هو المعاصرة ، فمن عاصر شاعرا رآه فهو حديث عنده ، فالأخطل رآه " أبو عمرو بن العلاء " لذلك يعد محدثا ، ويقول فيه :[2]

" لو أدرك من الجاهلية يوما واحدا ما قدمت عليه جاهليا ولا إسلاميا " وهذا يعد لونا من تعصب الرواة للشعر الجاهلى القديم . ورأى "الأصمعى " " بشارا " ، ومن ثم سلك معه مسلك " أبى عمرو مع الأخطل " ، وفى ذلك يقول[3] : " بشار خاتمة الشعراء ، والله لو أيامه تأخرت لقدمته على كثير منهم " .

---

(1) العمدة ١ : ٦٩ ، ٧٠
(2) فحوله الشعراء : ٢٤
(3) فحوله الشعراء : ٥١ .

ومع مرور الزمن تخف حدة التعصب للقديم ، خيره وشره ، وتخف معها معاداة الجديد خيره وشره ؛ لتحل محلها خطة معتدلة ، تقوم على الإنصاف والعدل بالنظر إلى الحسن والقبيح من حيث ذاتهما دون النظر إلى زمن أو مكانة الشاعر .

وكان أديب العربية الأكبر " الجاحظ " هو أول من ابتدع هذا الطريق ، وكان تلميذه " ابن قتيبة " هو أول من وضع النظرية فى إطار متكامل فقال وهو يرسم طريقة اختياراته الشعرية [1]: " ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر – مختارا له – سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ولا نظرت إلى المتقدم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه حظه ، فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه ، أو رأى قائله .

ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده ، وجعل كل قديم منهم حديثا فى عصره ، وكل شريف خارجيا[2] فى أوله ، فقد كان " جرير

---

[1] الشعر والشعراء : ٢ط٣ .
[2] الخارجى : من يسود بنفسه من غير أن يكون له قديم .

و"الفرزدق " و " الأخطل " يعدون محدثين ، وكان " أبو عمرو بن العلاء " يقول : " لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته " ، ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم ، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا " كالخزيمى " و " العتابى " و " الحسن بن هانى " ، فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، وأثينا عليه به ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله ولا حداثة سنه ، كما أن الردئ إذا ورد علينا للمتقدم ، أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه " .

وبالنظر فيما سبق من كلام " ابن قتيبة " نراه يخرج على القديم فى ثلاثة مواقف يعد عن طريقها رائدا فى التنظير لقضية فنية تجرد النقد للفن والجمال ، وتخلصه من الشوائب والعناصر الخارجة عن حدوده ، فقد رأى أن الحسن والجودة فى الشعر لا علاقة لهما بالزمن ، يوجد ان فى القديم والحديث ؛ لأن الله – جل شأنه– لم يقصر الشعر والبلاغة على زمن دون زمن آخر . ورأى أيضا أنهما – أى الحسن والجودة – يوجدان فى الشعر الذى حافظ على القديم – أو سلك خططه من مثل شعر : " جرير " و " الفرزدق " و " الأخطل " ، كما يوجد أن أيضا فى شعر الشعراء الذين أسسوا البديع أو عرفوا به فى شعرهم " كالعتابى " ، و " الحسن بن هانى " و " مسلم بن الوليد " .

كما رأى أنهما صفتان مجردتان لا ترتبطان فى الشعر بشئ خارج عن قيمهما ، فلا يتأثران بسن الشاعر ، أو شرفه ؛ لأنه يثنى على كل من أتى بحسن ، ولا يحط من قدره عنده تأخر قائله ، ولا حداثة سنه .

كما أنه لا يرفع الردئ عنده شرف صاحبه ولا تقدمه ، ومع هذه الخطوة التى تقوم على الإنصاف لم يتبعها خروج على القديم وتقاليده ، وظل الإلتزام بالقديم قائما ، وكان نموذجا يحتذى فى كليات القصيدة الشعرية وجزئياتها . ومن ثم رسم " ابن قتيبة " منهج الشعر القديم ، وطريقته من خلال قصائده ، وجعلها من الوسائل التى يحسن التمسك بها بالنسبة للشاعر الحديث حتى يجود شعره "[1] .

هذا وكان الحرص على القديم فى بناء القصيدة الشعرية وتشكيل عبارتها ، وقيم معانيها باعثه رد الفعل على حركة فنية بدت تطل طوالعها فى القرن الثانى الهجرى ؛ لتبلغ غاية الإبداع فيها ، والإسراف فى صورها فى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى ، وقد عرفت هذه الظاهرة الفنية باسم " البديع " ، وكانت تعنى الجديد المستحدث فى أول أمرها حين استحدثها " ابن هرمة " و" العتابى " و " بشار " ، ثم زاد فيها " مسلم بن الوليد " وبلغ فيها " أبو تمام "حد الإسراف ، وقد تفاوتت آراء النقاد فى قبوله فى أول الامر قبل أن يصل إلى هذا الحد من الإسراف قبل " أبى تمام " حتى إن " الأصمعى " ليفضل " بشارا فى بديعه على " مروان بن ابى حفصة " وهو ممن سلك طريق القدماء وعلل لذلك واعترف الجاحظ – فيما سبق – بشعراء البديع وبحسن شعرهم فقال [2] " وبشار حسن البديع ، والعتابى يذهب فى شعره فى البديع مذهب " بشار " .

---

[1] راجع التراث النقدى عند العرب رؤية تاريخية وفكرية د. عبد السلام عبد الحفيظ : ١٣٠،١٣١ طـ١ مطبعة دار البيان بمصر ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م .

[2] البيان والتبين ٣ : ٢١٢ دار الكتب العلمية ببيروت – لبنان

ويقول عن مسلم بن الوليد [1]" : "كان أحد من يجيد قريض الشعر " وكان يستشهد بشعر أبي نواس البديعي [2] .

ولما أسرف "أبو تمام " في البديع اشتدت عليه حملة النقاد ، فقال "ابن الأعرابي " وقد أنشد شعرا له [3]: " إن كان هذا شعرا فكلام العرب باطل " ، ولم يترجم له " ابن قتيبة " بين الشعراء في كتابه (الشعر والشعراء) مع أنه ترجم لمن ماتوا بعده.

وقد آثر " الآمدي " " البحتري " علي "أبي تمام " في كثير من مواضع الموازنة . وأصدر شعر " ابن المعتز " كتاب " البديع " في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ؛ ليصحح مفهوماً أو فكرة انتشرت عن طريق الرواة – كما ذكر – " الجاحظ " – تؤكد أن البديع أمر مستحدث ، فذكر أن هذا البديع لا حداثة له ، إنما الحديث الاستكثار منه ، فقال [4] :

" قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن ، واللغة ، وأحاديث رسول الله – صلي الله عليه وسلم – وكلام الصحابة ، والأعراب وغيرهم ، وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون " البديع " ليعلم أن " بشاراً " و " مسلماً " و " أبا نواس " ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلي هذا الفن ، ولكنه كثر في أشعارهم ، فعرف في زمانهم حتي سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه " .

---

(1) السابق ١ : ٣٠

(2) السابق : ١/١٤١

(3) الموشح : ٤٦٥

(4) البديع تحقيق د/ محمد خفاجي راجع ١٩ وما بعدها . دار الجيل بيروت – لبنان ١٩٩٠ م .

وبدا وضع " ابن المعتز " فارقاً في البديع بين القدامي والمحدثين يعتمد علي الكمية الموجودة منه في الشعر ، فالقدماء كان استعمالهم له قليلاً ، وأخذهم منه يسيراً ، والمحدثون استكثروا من صوره في شعرهم ، وزادوا من استعماله في صورهم .

وعلي أية حال فيمكن الوقوف عند العناصر والأسس التي تمثل قطب الرحي في الخصومة بين القدماء والمحدثين ، وهي الاختلاف في الأصول الفنية الموروثة المعروفة " بعمود الشعر العربي " فضلاً عن نهج القصيدة ، والإيمان بفكرة استنفاد القدماء للمعاني ، فجل هذه الخصومة كان دائراً حول تجديد المحدثين لمعاني القدماء ، وذلك بوضعها في قوالب شعرية جديدة ، وكثيراً ما استأثر هؤلاء القدماء بهذه المعاني وكان لابد للمحدثين من التوارد عليها [1] .

وكان " الصولي " شيخ المتعصبين للمحدثين علي القدماء ، فيقول متعصباً لمذهب " أبي تمام " وهو يتحدث عن " الفخر " ، ويبين دور المحدثين في الصياغة الشعرية ، وتفوقهم علي القدماء في هذا الصدد :[2]

" إن المتأخرين إنما يجرون بريح المتقدمين ، ويصبون علي قوالبهم ويستمدون بلبابهم ، وينتجعون كلامهم ، وقلما أخذ أحد منهم معني من متقدم إلا أجاده ، وقد وجدنا من شعر هؤلاء معاني لم يتكلم القدماء بها .

---

[1] مشكلة الرقات : ٢١٣ .

[2] أخبار أبى تمام : ١٧ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧م . النقد المنهجى عند العرب : ٨٠

ومعاني أومئوا إليها ، فأتي بها هؤلاء وأحسنوا فيها ، وشعرهم مع ذلك أشبه بالزمان ، والناس له أكثر استعمالاً في مجالسهم وكتبهم وتمثلهم ومطالبهم ، وهذا يؤيد ما قررناه من أن الخصومة كانت دائرة حول تجديد المحدثين لمعاني القدماء ، وإصابتهم في ذلك أو إخفاقهم " .

وفي الأمثلة التي يوردها " الصولي " أكبر توضيح لهذا الأمر ، فنراه يقول مثلا [1] :

" وقد استحسن الناس – أعزك الله – لامرىء القيس " تشجيعه شيئين بشيئين في بيت واحد ، قالوا لا يقدر أحد بعده علي أن يأتي بمثله وهو قوله في وصف " عقاب " :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا .·. لدي وكرها العُنَّابُ والحَشَف البالي

ولقد أحسن فيه وأجمل . فقال (بشار) :

كأن مُثَارَ النَّقع فوقَ رءوسِنَا .·. وأسيافنَا ليلٌ تَهَاوىَ كواكِبهْ

وهذا أعمي أكمه لم ير هذا بعينه قط فشبهه حدسا فأحسن وأجمل وشبه شيئين بشيئين في بيت واستحسنوا قول " النابغة " يعتذر إلي " النعمان ":

فإنك كالليل الذي هو مدركي[2] .·. وإن خلت أن المنتأي عنك واسع

خطا طيف حجن في جنَال متَينة .·. تمد بها أيد إليك نوازع

---

[1] النقد المنهجي ٨٠ ، ٨١ .

[2] قال الشاعر " كالليل الذي هو مدركي " ولم يقل : كالصبح ؛ لأنه وصفه في حال سخطه ، فشبهه بالليل وهو نه ، فهي كلمة جامعة لمعان كثيرة .

فقال (سلم الخاسر) يعتذر إلي (المهدي) في أبيات :

إنـي أعـوذ بخـير النـاس كلهـم ∴ وأنـت ذاك بمـا تـأتي وتجتنـب
وانـت كالدهـر مبثوثـا حبائلـه ∴ والدهر لا ملجأ منـه ولا هـرب
ولـو ملكـت عنان الريح أصرفه ∴ فـي كـل ناحيـة ما فاتك الطلب

وهذا البيت من قول (الفرزدق) (للحجاج) :

ولو حملتنـي الريـح ثـم طلبتني ∴ لكنـت كشـيء أدركتـه المقـادر

فجعل حيـال " وإنـك كـالليل " " وانـت كـالدهر " وجعـل حيـال " خطـا طيف حجن " " ولو ملكت عنان الريح " وأحسن علي أن " ابن جبلة " قد مـدح بمثل معني " النابغة " " حميداً " فقال :

وما لامرىء حاولته عنك مهرب ∴ ولـو رفعتـه في السماء المطالع
بلـي هـارب لا يهتـدي لمكانـه ∴ ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع

" فلأبن جبلة " أنه زاد في المعني وأشبعه ، وعليه أنه جاء في بيتين " والنابغة " جاء به في بيت له السبق ".

وعقب "الدكتور منـدور"[1] علـي هذه الأمثلـة ،وذكـر أنهـا مـن احـود القديم واجود الحديـث ولكـن هنـاك فـرق واضـح فـي مصـدر الشـعر فـي كـل منهما.

فلو نظرنا في تشبيه " أمرىء القيس " وتشبيه " بشار " لأدركنـا كيـف أن " أمرأ القيس " لم يذهب بعيداً وإنما طلب إلي حواسه المألوفة وإلـي حياتـه الراهنـة أن تعفـه بهـذا التشـبيه الصـادق الغريـب ، تشـبيه قلـوب الطـير التـي افترستها العقاب بالعناب والحشف البالي ، العناب للقلوب الرطبـة ، والحشـف للجافة .

---

[1] راجع النقد المنهجي : ٨١ وما بعدها.

والناظر في تشبيه " بشار " التمثيلي يراه يشبه النقع وقد انعقد فوق الرءوس والسيوف تضرب – بالليل تتهاوي كواكبه ، و " بشار " لم ير الليل تتهاوي كواكبه ، ولا رآه حتي المبصرون ، فهو تشبيه بعيد ليست له في النفس صورة ما ، ولا يكاد أحد يتصور أن ليلا تسقط نجومه فيشبه ذلك معركة ترتفع فيها السيوف ، ثم تسقط مبرقة وسط النقع المثار ، وليس كذلك تشبيه "امرىء القيس " .

وهذا هو موضوع الخصومة ، فأنصار القديم يرون أن الشعراء الجاهليين كانوا بحق أصدق شعراً وأقرب إلي المألوف من المحدثين الذين يغربون ويبعدون بنا عن معطيات الحواس المباشرة التي هي مادة الشعر وسبيله إلي إثارة الصورة في نفوس السامعين ، وبعث الأصداء الملازمة للواقع .

وبالنظر في النموذج الثاني نري " النابغة " أراد أن يدلل علي قوة " النعمان " وقدرته ، فلم يذهب بعيداً في ذلك – فشبهه بالليل الذي يدركنا جميعاً أينما كان ، ومن ثم كان تشبيهاً صادقاً قوياً قريباً ، وهو يحس بظلام الليل وما فيه من هول يعبر عما في نفسه من خوف فوق تعبيره عن سطوة " النعمان " ، وهو يعود فيجسم وقوعه المحتوم في يد الملك الذي أوعده ، وقد نظر حوله فرأي الدلو معلقة بالخطاطيف الحجن لا تستطيع أن تفلت منها ، وما علي الماتح إلا أن يشدها إليه لتأتيه ، فخفت قريحته الأصلية إلي تشبيه موقفه من " النعمان " بهذه الدلو . وتلك صورة حسية واضحة مألوفة لكل عربي ، وبسبب هذه الألفة جاءت قوية الدلالة ، مثيرة لكثير من المعاني والإحساسات .

" والفرزدق " الذي يمثل مرحلة وسطا بين الجاهليين والمحدثين – أراد أن يعبر عن خوفه من " الحجاج " بفرض بعيد التحقيق (ولو حملتني الريح) وهذا مما لا شك فيه أضعف من قول " النابغة " : (فإنك كالليل الذي هو مدركي) ، وكل فرض أضعف من التقرير ، كما أن إدراك المقادر ليس فيه من الشاعرية ما في الليل ، فضلاً عن أنه ليس له في النفس ذلك المعني المحس الذي ندركه جميعاً بتجاربنا اليومية عندما تحيط بنا ظلمة الليل ، فالليل شيء حسي مباشر ، وأما المقادير فمعني مجرد بعيد ، ومع هذا فبيت " الفرزدق " لا يزال قريباً . واما " سلم الخاسر " فقد أمعن في التجريد ، فاستبدل الليل بالدهر ، والليل شيء نعرفه جميعاً ، واما الدهر استبداله " خطاطيف حجن" بقوله : " ولو ملكت عنان الريح " فهذا فرض لا يمكن ان ينهض " للخطاطيف " التي يعرفها السامع ويري صورتها ، ويدرك دلالتها.

وهكذا يبدو الفرق واضحاً مما سبق بين مذهب القدماء العريق في حقيقة الشعر من حيث إنه يصاغ من معطيات الحواس المباشرة بعيداً عن التجريد ، والإغراب ومذهب المحدثين الذين يسرفون ، ويقتسرون ، ويضربون في عالم المجردات . والمطالع لأبيات " ابن جبلة " يري صدق ذلك وتعزيزه ، فقد ذهبت مبالغته بصدق إحساسه [1] .

---

[1] راجع النقد المنهجي عند العرب د/ مندور : ٨٢ .

أما عن فكرة استنفاد المعاني [1] ، وأن الأول لم يترك للآخر شيئا لم تكن من وحي الخصومة بين القدماء والمحدثين ، وإنما هي فكرة أقدم بكثير من هذه الخصومة .

ومن المعلوم أن قضية (اللفظ والمعني) كانت من بين أسباب الخصومة بين الطرفين ، فنري المحافظين علي القديم يتمسكون بتناولهم لمعاني الأقدمين ، ولكنهم يأخذون في تحويرها بالصياغة الجديدة ، وبما يتلمسونه من ألوان البديع ، وبذلك ينتصرون للفظ علي المعني ، أو بمعني آخر ينتصر للصورة الشعرية . وفي ذلك يقول " ابن أبي عون " [2] : " وقد تكررت في كتابنا تشبيهات للمحدثين ؛ لأننا اعتمدنا علي إثبات عيون التشبيهات المختارة ، والمعاني الغريبة البعيدة دون المتداولة المختلفة . والمتقدمون – وإن كانوا افتتحوا القول ، وفتحوا للمحدثين الباب ، ونهجوا لهم الطريق ، فكان لهم فضل السبق ، واستئناف المعاني ، وصعوبة الابتداء – فإنهم قد أحسنوا التأمل ، وأصابوا التشبيه ، وولدوا المعاني ، وزادوا علي ما نقلوا ، وأغربوا فيما أبدعوا ".

---

[1] سلك ابن رشيق مسلكاً يختلف عن النقاد في استنفاد المعاني جملة كأغلب النقاد ، فهو لا يؤمن بذلك بل يري أن القدماء نصبوا الأعلام للمتأخرين ، ولكن المعاني أبدا تتردد وتتولد والكلام يفتح بعضه بعضا ، وأن للمحدثين توليدات وإبداعات عجيبة لم تقع للقدماء ، وخاصة لأن المعاني اتسعت بإتساع الناس في الدنيا وانتشار العرب في الأرض ، وأخذهم بمظاهر الحضارة المختلفة ، ويحتج بكلام (ابن جني) : المولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ العمدة ١٨٣/١ .

[2] كتاب التشبيهات : ٧٤ ت محمد عبد المعين خان ط مطبعة جامعة كمبردج ١٩٥٠ م.

ويقرر " ابن رشيق " [1] أن مثل القدماء ، والمحدثين كمثل رجلين : ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه ، ثم أتي الآخر فنقشه وزينه ".

وهكذا يبدو مما سبق أن الخصومة بين القدماء والمحدثين كانت قائمة علي أساس تاثير الرواة المتحفظين الذين ناصروا القديم للمحافظة علي كيانهم رواة للشعر القديم يتكسبون بروايته ، أما الشعر الحديث فهو ليس عندهم بضاعة مزجاة ، لهذا كانوا يتعصبون عليه ، والأدلة علي ذلك كثيرة ، منها : مهاجمة ابن قتيبة [2] للرواة ، لأنه رأي بعضهم يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويرذل الشعر الرصين لأنه لمحدث .

كما ان هذه الخصومة كانت قائمة علي أساس عمود الشعر ، ونهج القصيدة ، وهما يعبران عن مظهر المحافظة علي القديم ، والالتزام به ، وعدم الخروج عليه . كما كانت أيضا قائمة علي أساس قضية اللفظ والمعني ، فنري أنصار القديم يهمشون المحدثين ، ويسفهونهم ؛ لأن معانيهم مأخوذة من الأقدمين ، وليس فيها أي جديد ، وكان توسعهم في هذا البحث أساس مشكلة السرقات ، حيث حاول أنصار القديم أن يجعلوا من هذه السرقات إغارات حقيقية لا ينسب الفضل فيها للمتبع ، فالشعر القديم عندهم يمثل المثل الأعلي والنموذج الذي يحتذي به المحدث .

---

(1) العمدة في صناعة الشعر ونقده ١: ٥٧ نشر محمد بدر النعساني مطبعة السعادة القاهرة ١٩٠٧م.

(2) راجع الشعر والشعراء : ٥ مطبعة بريل في لندن ١٩٠٢م نشره ديجويه .

أما أنصار الحديث فقد حاولوا أن يخرجوا مشكلة السرقات من هذا المفهوم الضيق ، ويحولوها إلي مشكلة تتعلق بفن الأدب نفسه من حيث هو صياغة ، وتعبير ، وضرب من التصوير [1] .

وقد قرر " دكتور إبراهيم سلامة " [2] أن سرقة معاني الأقدمين ليست في الواقع غير اعتراف عملي صريح من المحدثين بأن من تقدمهم أمثال تحتذي ، ونماذج يفرغ علي قالبها .

وقد سبق للمحدثين أن أقروا بذلك كما في تأييد " الصولي " لهم ، ولكن هذا لا يقلل من فنهم ، ولا يبخسه بأي حال من الأحوال .

وقد حرص علماء اللغة علي العربية ، وبقائها سليمة خالية من الشوائب ، فوضعوا لها القواعد ، والأسس ، وجمعوا شعرها القديم ، وجعلوه المثل الأعلي في الفصاحة والبلاغة ، وظلوا يدافعون عن هذا الشعر ، وصرفوا الأنظار عن غيره من شعر المحدثين ، ولم يطمئنوا للاستشهاد به لغوياً ونحوياً حتي جعلوا من أنفسهم أمناء وحراسا علي اللغة العربية ، ومقوماتها ، وأصولها [3] .

وعلي الجملة فإن النقاد القدامي قد وقفوا للشعراء المحدثين بالمرصاد، وحاولوا دون جواز شعرهم ، ما لم يكن سليماً لغوياً وأسلوبياً ، وفي الوقت نفسه نراهم يقرون شعرهم من الناحية الفنية ، وما أثر عنهم من أقوال في هذا الصدد يثبت ذلك .

---

(1) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان : ١٩٥ - الناشر مكتبة الأنجلو ١٩٥٠م .
(2) راجع مشكلة السرقات : ٢١٦ .
(3) راجع تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الأول د: شوقي ضيف : ١٣٨ وما بعدها .

المبحث الثالث

(العوامل التي جعلت هؤلاء الدارسين يضعون النقاد العرب القدامي في هذا الموقف)

وقف الدارسون المحدثون من النقاد العرب القدامي موقفاً جعلهم في موقف الرافض لشعر المحدثين ، وهذا الموقف لا يستند إلي حقيقة بقدر ما يتكيء ويقوم علي أخطاء في كيفية القراءة والفهم لنصوص النقد العربي القديم ، ومن هذه الأخطاء :

الخلط بين الاتجاه العام المؤثر وبين النصوص المفردة الواردة عن هؤلاء النقاد.

ويبدو هذا جلياً في تغليب هؤلاء الدارسين لهذا العدد الضئيل من النصوص التي استندوا إليها في دعواهم علي تلك النصوص الهائلة المروية عن أولئك النقاد ، والتي من شأنها تبديد هذه الفكرة ، وتغيير هذا الموقف ، ونقض هذه الدعوي من أساسها ، وكيف يتأتي تغليب الأقل علي الأكثر ، دون النظر إلي الاتجاه العام لحركة النقد العربي ؟ فهذا مما يصعب معه الوصول إلي أي موقف من مواقف النقد ، أو مواقف رجاله ، وبخاصة إذا كانت هناك نصوص تنقض هذه النصوص المفردة من زاوية أخري وتتعارض معها .

وهذا من شانه يجعل الاستناد إلي النصوص الواردة بشأن هذه القضية غير مؤكد.

وقد نقل الدارسون المعاصرون جميعا الفقرة التي أوردها " ابن قتيبة" في مقدمة كتابه " الشعر والشعراء " [1]، وفيها يري أنه لا يخرج متأخر الشعراء عن مذهب المتقدمين في افتتاح القصيدة ، وراح الجميع تقريبا يتهمونه بالرجوع إلي الوراء معتمدين في ذلك علي هذه الفقرة. والمطالع لهذا الكتاب لا يري أثرا لما ورد في هذه المقدمة ، فقد ترجم لبعض الشعراء المحدثين الذين عرفوا بالتجديد . ومن هؤلاء : " بشار " المعروف بزعيم المحدثين ، وبسلوكه طريقا يخالف طريق الأوائل ، " ومسلم بن الوليد " الذي سار علي مذهب " أبي تمام " ومن هؤلاء أيضا " أبو نواس " ، ولم يسر " بشار " علي النهج الذي أورده " ابن قتيبة" من حيث الرحلة علي الإبل وقطع الصحراء المخيفة عليها ، وكذلك الإلمام بالغزل في مقدمة القصيدة الموجبة ، فقد ترك كل وسائل الرحلة علي البر ورحل إلي " المهدي " في سفينة وصفها ووصف الرحلة عليها ، كما أعلن إقلاعه عن الغزل في بعض مقدمات قصائده.

وخالف " مسلم بن الوليد " نهج " ابن قتيبة " سواء بإهمال الحديث عن الأطلال والانصراف إلي الحديث عن حياته اللاهية في مقدماته ، ام بالرحلة علي سفينة – كما فعل " بشار " – ومع كل هذا لم يشر " ابن قتيبة " إلي هذا الخروج عند " بشار " كما قرره الناقد ، وإنما الذي يستلفت الأنظار وصفه له بأنه من الشعراء المطبوعين ، وأنه من أشعر المحدثين ، فضلا عن ذكره

---

[1] ٧ – عالم الكتب .

ما سبق إليه من المعاني ، وما اورده من شعر علي سبيل الاستحسان والاستجادة [1] .

وكذا الحال بالنسبة لـ (مسلم بن الوليد) فقد وصفه بأنه :

" أول من الطف المعاني ، ورقق القول " دون أن يشير إلي شيء من خروجه علي المتعارف – أو ما اعتبره كذلك – في مقدمة القصيدة ، ولم يختلف موقفه مع " أبي نواس " عن ذلك الموقف ، مع ما اشتهر به من الدعوة إلي تغيير مقدمة القصيدة ، هذه لدعوة التي تعد نقيضاً الدعوة " ابن قتيبة " علي طول الخط . وإذا كان " ابن قتيبة " قد أبدي بعض الملاحظات بشأن " أبي نواس " ، فقد ورد بشأنه بعض العبارات التي تفيد الاستحسان والتفريظ ، والوصف بالعلم ، والرواية ، والسبق أيضا .

ويبدو وجوب الاعتماد علي الاتجاه العام عند الناقدون دون الوقوف عند تصريح مفرد يصدره في هذه المناسبة ، أو تلك ثم يتراجع عنه في نقده التطبيقي . والتصريح بالشيء ثم نقضه بعد ذلك يؤكد عدم دقة الاعتماد علي النصوص المفردة في فهم النقد العربي .

فلا عبرة إذن بالنصوص المنفردة ما لم ينظر إليها في ضوء الاتجاه العام المؤثر في حركة النقد ، وبيان الفرق بين هذا الاتجاه ، والنصوص المنفردة شرط أساس في قراءة النقد العربي قراءة صحيحة .

---

[1] السابق : ١٧٧

ومن الشروط الواجب توافرها في قراءة النقد العربي قـراءة صحيحـة – أيضاً – التخلص من الأفكار المسبقة عن هذا النقد ، والإخلال بهذا الشرط يؤدي إلي وقوع كثير من الدارسين المعاصرين في الكثير من الأخطاء ، كإخفاء الحقيقة التي كانت تكشف عن نفسها لبعض هؤلاء الدارسين أحياناً ، فسيطرة الفكرة القائمة علي تعصب قدامي النقاد ضد شعراء المحدثين علي أذهان بعض الدارسين جعلتهم يفهمون بعض النصوص علي أساسها ، دون ان يكون لها صلة بالقضية .

وإلا فبماذا تفسر تعصب " أبي عمرو بن العلاء " ووصفه للإسلاميين بانهم محدثون .

وكان " أبو تمام " في منزل " الحسين بن الضحاك " وهو ينشد شعره ، وعنده " إسحاق الموصلي " ، فقال له " إسحاق " : يا فتي ، ما أشد ما تتكيء علي نفسك " يعني أنه لا يسلك مسلك الشعراء قبله ، وإنما يستقي من نفسه ، فإن " إسحاق " إذن يطعن علي طريقة المحدثين عن عقيدة وإيمان ، لا لأنهم معاصرون ، ولا لأنهم محدثون ، فمذهبهم منحرف عن الجادة في رأيه ، وأشعارهم لا تقوم علي العناصر التي يجب أن يقوم عليها الشعر الجيد [1]".

وعدم استشهاد اللغويين في ميدان النحو واللغة بشعر المتأخرين يعد تعصباً ضد هذا الشعر من الوجهة الفنية .

---

[1] تاريخ النقد الأدبي عند العرب : ٩٨

وبلغ الأمر حدا كبيراً من جراء سيطرة هذه الفكرة علي أذهان البعض لدرجة جعلتهم يبترون النصوص ، ويقفون بها عند النقطة التي تكفل له تأييد فكرته.

وقد بدا هذا عندما اغفل أحد الباحثين والناقدين [1] بقية الخبر المروي عن تعصب " أبي رياش القيسي " الراوية ضد المحدثين وبخاصة " أبو تمام " و " البحتري " حتي أن نسخ ديوانيهما قلت " بالبصرة " في وقته لقلة الرغبة فيهما .

وقد أنشد ذات يوم قول (البحتري) :[2]

نظرت إلي طدان [3] فقلت ليلي ∴ هناك وأين ليلي من طوان
ودون مزارها إيجاف[4] شهر ∴ وسبع للمطايا أو ثمان
ولما غربت أعراف سلمي ∴ لهن وشرقت قنن القنان
تصوبت البلاد بنا إليكم ∴ وغني بالإياب الحاديان

فقال : احسن والله من هذا البدوي المطبوع ؟ فقيل : إنها " للوليد بن عبيد " ، فقال : أعد – فأعيدت . فرجع عن رأيه فيه ، وحصن الناس علي رواية شعره .

وقد وصل الأمر بالبعض إلي حد تجاهل النص نهائياً ، واعتبار هذه الدلالة من قبيل الشذوذ

---

(1) د/ محمد مصطفي هدارة (مشكلة السرقات في النقد العربي) : ٢١٠
(2) الديوان ٢ : ٢٨١ مطبعة القاهرة ١٩١١ م .
(3) طدان قال ياقوت : هو موضع بالبادية فى شعر البحترى
(4) الايجاف : نوع من اليسر

وهذا ما بدا في موقف أحد النقاد [1] حيال نص " الأصمعي " في تفضيله " لبشار " علي " مروان " مكتفيا بالاستغراب والتعجب ، وفي هذا يقول : " كلاهما من مخضرمي الدولتين ، ومن طبقة واحدة ، ولكنهما متفاوتان في المذهب ، فمروان محافظ علي القديم ، " وبشار " حضري مجدد صاحب بديع ، فأيهما أشعر ؟

كان " الأصمعي " يقدم " بشارا " علي " مروان " ، وقد يكون ذلك غريباً من لغوي " كالأصمعي " إذا عرفنا أن اللغويين جميعاً كانوا يتعصبون للقدماء هلي المحدثين – ولمن هم علي طريقة القماء . وإذا عرفنا أن " الأصمعي " نفسه من الذين بعدت بهم العصبية في ذلك ، ومهما يكن من شيء فقد كان " الأصمعي " يقدم " بشارا " ، ومهما يكن من شيء فقد كان " الأصمعي يقدم " بشارا " ، ويذكر من بواعث هذا التقديم تجديده ، وأنه لم يذل لمذهب الوائل ، وإنه واسع " البديع " .

ومع ان هذا النص واضح في تفضيل بشار علي " مروان " وهو أحد المتمسكين بالقديم ، بيد أن سيطرة فكرة تعصب اللغويين للقديم جعلت الدارس يفضل أو يتغافل عن الدلالة الحقيقية للنص ، مبدياً في ذلك إظهار التعجب ، وهنا تظهر المشكلة التي تتمثل في التناقض بين ما أشيع عن ذلك الفريق من النقاد من معاداة شعر المحدثين ، وبين نصوص من ذلك النوع الذي توقف أمامه صاحب " تاريخ النقد الأدبي عند العرب " ، وكذلك بين ما أشيع عن اللغويين من الحضن علي القديم واتباعه ، وبين ما هو معروف من مهاجمتهم لأدني صور .

---

[1] طه احمد ابراهيم في كتابه : تاريخ النقد الأدبي عند العرب : ٩٧.

هذا الاتباع ، وهذا ما حدا بالبعض إلي القول بأن النقد العربي الخالص قد وضع الشعراء والنقاد جميعا في مأزق وذلك من جراء إلزامه المحدث بمجاراة القدماء في كل شيء - كما هو معروف - ومقاومته في الوقت نفسه لكل صور التوافق مع القدماء في المعاني والأساليب ، مما قد يجر بالشاعر المحدث إلي الوقوع فيه أحيانا .

وهكذا يبدو مما سبق أن الفكرة المسبقة والخاطئة في الوقت نفسه تقف حائلاً دون كشف الحقيقة ، بل دون تقبلها عند انكشافها ، كما تعدم أيضا عاملاً علي تصوير الموقف علي غير حقيقته .

ولابد من فهم النصوص في إطار عصرها ، وهو المعروف بالفهم التاريخي للنصوص وذلك ؛ لبيان حقيقة المراد منها . ومما لا شك فيه ان اختلال هذا الشرط في فهم بعض هذه النصوص النقدية ساعد على أن جعلها تعنى الغض من شعر المحدثين . وقد أسيء فهم هذه النصوص منها النص المنسوب إلي "أبي عمرو العلاء " في وصفه لشعر المحدثين بالتفاوت ، كما في قوله[1]

" ايس النمط واحدا ، تري قطعة ديباج ، وقطعة مسح ، وقطعة نطع"

وكذلك النص المنسوب إلي " ابن الاعرابي " في وصفه لشعر المحدثين بسرعة زوال أثره ، وتشبيهه له بالريحان الذي يشم يوما ثم يزوي فيرمي به ، في حين أن أشعار القدماء تشبه المسك الذي يزداد طيبا بتحركه ، وقد سبق ذكر هذا النص .

ومثل هاتين الصفتين ، وما ورد فيهما من صفات ينبغي فهمها في إطار العصر الذي صدرتا فيه .

---

[1] العمدة : ١: ٦٩ .

ولم تكن صفة تفاوت الشعر بين الجودة والرداءة ، او الجزالة والليونة – صفة خطيرة في نظر أولئك النقاد الذين صدرت عنهم . ومما يؤيد هذا إجماعهم علي اتصاف شعر " النابغة الجعدي " بهذه الصفة ، وقد بدا هذا فيما حكاه " الأصمعي " عن بعضهم :

ما تقول في شعر (النابغة الجعدي) ؟ قال : [1]

" إنه صاحب خلقان عنده مطرف بألف ، وخلق بدرهم " .

وروي " الأصمعي " عن " أبي عمرو بن العلاء " قال [2]: سئل "الفرزدق " عن " النابغة الجعدي " ، فقال : صاحب خلقان يكون عنده مطرف بألاف وخمار بواف .. " .

قال " الأصمعي " : " وصدق " الفرزدق " بينا " النابغة " في كلام أسهل من الزلال ، وأشد من الصخر إذلان فذهب ، وطريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان " .

وحكي عن " أبي عبيدة " : قال : [3] " قيل لـ " جرير " كيف تري شعر " ذي الرمة " ؟ قال " نقط عروس ، وأبعار ظباء ".

إنما شعر " ذي الرمة " نقط عروس يضمحل عن قليل ، وأبعار ظباء لها مشم في أولها ، ثم تعود إلي أوراح البعر .

---

(١) الموشح : ٨٩ فحولة االشعراء : ٤٢

(٢) صاحب الخلقان : الذي يبيع قديم الثياب في الأسواق – بواف بدرهم وثلث.

(٣) طبقات الشعراء : ٤٦٧ ، الموشح : ٢٧١

وقد شرح (الأصمعي) هذا فقال [1] :

" إن شعر " ذي الرمة " حلو أول ما تسمعه ، فإذا أكثر إنشاده ضعف ولم يكن له حسن ، لأن أبعار الظباء أول ما تشم يوجد لها رائحة ما أكلت الظباء من الشيح والقيصوم ، والجشجاث ، والنبت الطيب الريح ، فإذا أدمت شمه ذهبت تلك الرائحة ، ونقط العروس إذا غسلتها ذهبت " .

وقال "المبرد "[2] معنى قوله : " نقط عروس " أى أنها تبقى أول يوم ثم تذهب ، و " بعر الظباء " إذا شممته من ساعته وجدت منه كرائحة المسك ، فإذا غب[3] ذهب ذلك .

هذا – فى الغالب – ملخص النقد الذى وجهه " ابن الأعرابى " إلى شعر المحدثين ، أى سرعة زوال الأثر الذى يحدثه الشعر ، أى إن كان فيه حلاوة فإنها لا تبقى .

وإذا كانت هذه الصفة ليست من الخطورة من وجهة نظرهم بالدرجة التى يسقط معها شاعر كـ " ذى الرمة " ، فمن الطبيعى أيضا أن لا يفهم منها أنها تعنى الرفض لشعر المحدثين .

ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن الشعر القول بأن النقاد اضطلعوا بمهمتين أساسيتين حينذاك وهما : الأولى : تقويم الشعر ونقده ، وتوجيهه فى تلك الفترة الزمنية ، والثانية : حركة التنقية اللغوية .

---

(1) الموشح : ٢٧١ : ٢٧٢ .
(2) السابق : ٢٧١ .
(3) غب الطعام والتمر : بات ليلة فسد أولم يفسد . وغب الطعام : تغيرت رائحته .

وقد وردت نصوص على ألسنة العلماء ، والنقاد تشير إلى رفضهم لأشعار المحدثين فى مجال الإستشهاد اللغوى والنحوى ، وعدم احتجاجهم بأشعار الإسلاميين .

وظهر ذلك عند " أبى عمرو بن العلاء " وغيره . وكثيرا ما كان اللغويون والنحاة يختتمون الشعر بأجيال معينة ، ويتوقفون عندها في الاحتجاج به .

ومع وضوح وجلاء العبارات والنصوص التي وردت علي ألسنة هؤلاء النقاد ، وبيان الغرض منها – فإن الدارسين المحدثين خلطوا بين استبعاد شعر المحدثين وعدم الاستشهاد به في المجالين : اللغوي والنحوي وبين رفضه لاعتبارات فنية ، وفسروا ما تنطوي عليه هذه النصوص علي أنه من قبيل التعصب ضد القديم . ولعل مما أوقع هؤلاء الدارسين في هذا اللبس والخطأ عدم فطنتهم وإدراكهم للمهمة المزدوجة الملقاة علي عاتق النقاد الأول .

فكان العلماء " كأبي عمرو بن العلاء " و " خلف " و " أبي عبيدة " " والأصمعي " يقومون بدور الناقد الموجه ، إلي جانب حركة التنقية اللغوية وتخليص اللغة مما يشوبها من كدر .

وكانت هذه الحركة تنظر إلى نماذجها نظرة تختلف عن نظرة الناقد العادى ، المتكفل بمهمة التحليل والتقويم أو الحكم .. مراعيا كل عناصر العمل الفنى ، وحاملا عيوبه على محاسنه ، بحيث يصدر عليه حكما كليا يمثل حصيلة جمع المحاسن إلى العيوب .

وكان على أولئك العلماء النقاد حين تعرضهم للعمل اللغوى أن يرفضوا كل ما لا يصلح للاحتجاج به فى هذا المجال ، وكان الكثير مما يرفضونه ينتمى إلى العصور المتأخره وذلك بحكم عدم توافر شرط النقاء اللغوى فى شعر المتأخرين .

وهذه حقيقة ما يبدو فى عبارات بعض أولئك العلماء من إشادة بالشعر القديم دون الحديث ، كقولهم :

بأن الأول أساسى الإحتجاج ، فهذه العبارات والمقولات لا تحمل وراءها سوى أن الشعر القديم هو الذى يمثل المادة الصالحة للاحتجاج اللغوى والنحوى ، وفيما سوى ذلك لم يكن هناك توجيه لتفضيل شعر على شعخر إلا على أساس الجودة بصرف النظر عن مقاييسها التى لم يكن من بينها قدم الشعر .

ومن الشعراء الذين لا يحتج بلغتهم : ثلاثة من الجاهلين ، واثنان من الإسلاميين . أما الجاهليون فهم " عدى بن زيد " و " أبو دؤاد الإيادى " " وأمية بن أبى الصلت " . أما الإسلاميان فهما " الطرماح " و " الكميت " وحين تتجاوز الأمور الجانب اللغوى والنحوى يكون شعرهم محلا للتقدير من جانب علماء الأدب والشعر .

يقول (ابن سلام)[1] عن (عدى بن زيد) :

---

[1] طبقات الشعراء : السفر الأول شرح محمود محمد شاكر : ١٤٠ ، ١٤١ طبقة المدنى

" وله أربع قصائد غرر وأربع مبرزات ، وله بعدهن شعر حسن "

ويحكى عن " يونس " قوله وقد تمثل ببيته :

أيهـــا الشامـــت المعيـر بالدهـ ∴ أأنت المبـــرأ الموفـــور

فقال " يونس " لـو تمنيت أن أقول شعر مـا تمنيت إلا هـذه أو مثل " هذه "

وتناول " ابن قتيبه " [1] فى حديثة عن " عدى بن زيد " ما أورده "ابن سلام " ، وما وصفه به فى " طبقاته " من أن له أربع قصائد غررا ، ثم أورد منها جميعا فى كتابه ، واستجاد له قوله :

قد يدرك المبطئ من حظه ∴ والخير قد يسبق جهد الحريص

وهو البيت الذى ذكره " المبرد " أن " القطامى " أخذ منه قوله :

قد يدرك المتأنى بعض حاجته ∴ وقد يكون مع المستعجل الزلل

وأورد " ابن قتيبه " [2] قول " الحطيئة " الذى استشهد به " القاضى الجرجانى "[3] ، وكان " الحطيئة " قد سئل من أشعر الناس ؟ فقال : " الذى يقول " ، وأنشد لـ " أبى دؤاد "[4]

لا أعد الإقتار عد ما ولكن ∴ فقد من قدز رزئته الإعدام

من رجال من الأقارب باذو ∴ من حذاق هم الرؤوس العظام

---

(1) الشعر والشعراء : ٣٥

(2) السابق : ٣٧ - ٣٩

(3) الوساطة : ٥١

(4) الشعر والشعراء : ٣٨ . حذاق : " رهط " أبى دؤاد الايادى "

وقد عد " ابن قتيبه " هذه القصيدة من أجود شعره ، واختار البعض منها وأورده ، وسجل له قصب السبق فى قوله فى حماية الجار ، والمحافظة على عهده ، وأخذه منه الحطيئة .

ومما اختاره " ابن قتيبة " وجعله موضع الإجادة قول " ابن أبى دؤاد " فى وصف الابل :

إبلـــى إبـــل " لا يحوزهـــا الـــرا ∴ عـــون مـــج الندى عليها الغمام

ومن النماذج الدالة على حماية الجار قوله :[1]

تـــرى جارنـــا آمنـــا وســـطنا ∴ يـــروح بعقـــد ويثـــق الســـبب

إذا مـــــا عقدنا نالـــه ذمـــة ∴ شددنا العناج وشدوا فوقه الكربا

كما أورد (ابن قتيبه) قوله بشان (ابن أبى دؤاد)[2]

(وهو أحد نعات الخيل المجيدين ، وهم ثلاثة : " أبو دؤاد " فى الجاهلية ، و" طفيل " و " الجعدى " .

وقال (أبو عبيده)[3] . بشأن (أمية بن أبى الصلت) :

" اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدن " أهل يثرب " ثم " عبد القيس " ، ثم " ثقيف " ، وأن أشعر " ثقيف " : " أمية بن أبى الصلت " .

وصنف " الأصمعى "[4] شعر أمية بين أشعار من ذهبوا فى اتجاه واحد ، إذ يرى أن عامة شعر " أمية " فى ذكر الآخرة .

---

(1) السابق : ٣٩ . العناج : عروة فى أسفل الدلو من داخله تشد بوثاق الكرب ، فإذا انقطع الحبل أمسك العناج الدلو أن يقع فى البئر . والكرب : الحبل الذى يشد على الدلو بعد المتين وهو الحبل الأول ، فإذا انقطع المتين بقى الكرب .

(2) السابق : ٣٨

(3) الأغانى : ٥ : ١٤٢ وما بعدها

(4) فحولة الشعراء : ٦٢

كما أن عامة شعر " عنتره " ذهبت فى الحرب ، وشعر " عمر بن أبى ربيعه " ذهبت فى ذكر الشباب .

وقد أورد " ابن قتيبه " " الكميت بن زيد " وترجم له[1] ، وتعرض لشعره وكثرة سرقة ، وأشار إلى بعض المختار من شعره مع هذا ، وأورد له قطعه من قصيدة " بائية فى مدح " " النبى " صلى الله عليه وسلم ، وذكر مناقب " آل البيت " وفيها يقول :

يقولون لم يورث ولولا تراثـــه ∴ فقـد شاركـت فيه بكيل وأرحب

وذكر من جيد شعره قوله :-

ألا لا أرى الأيـام يغنـى عجيبهـا ∴ لطول ولا الأحداث تفنى خطوبها

ولا غبن الأيام يعـرف بعضهـا ∴ ببعـض مـن الأقـوام إلا لبيبها

وقد أورد (الحاتمى) فى " الحلية" تفضيل (الأصمعى) لبيت الكميت :

يبدو وتضمره البلاد كأنه ∴ سيف على شرف يسل ويغمد

على قول (النابغة) : [2]

من وحش وجرة وحرة موشى أكارعه ∴ طاوى المصير كسيف الصيقل الفرد

---

(1) الشعر والشعراء : ١٣٩

(2) فحولة الشعراء : ٥٧ ، ٥٨ .

المصير ج مصران . وجره : موضع . موشى أكارعه : أى بقوائمة فقط سود الصيقل: الحداد . طاوى المصير : ضامره الفرد : المنقطع القرين فى الجودة

وعلل لذلك " الأحمصى " فقال : " وأما قوله " طاوى المصير كسيف الصيقل الفرد " فالطرماح أحق بهذا المعنى ؛ لأنه أخذه فجوده ، وزاد عليه ، وإن كان " النابغة " اخترعة " .

وقد جمع " الطرماح " فى بيته استعارة لطيفة ، بقوله : " وتضمره البلاد " وتشبيهه اثنين بقوله " يبد ووتضمر " و " يسل ويغمد " وجمع حسن التقسيم ، وصحة المقابلة .

وهكذا يبد واعتراف " الأصمعى " بشعر عدد من الشعراء ممن رفض الإحتجاج بشعرهم ، وهذا إن دل على شيئ - فإنه يدل على مكانه هؤلاء الشعراء ، ومكانه - شعرهم عنده . ولعل السبب فى رفض الإحتجاج بهذا الشعر يرجع إلى إعتبارين اثنين : أولهما مكانى : أى يرجع إلى المكان كما فى قول " ابن قتيبة " عن " عدى بن زيد "[1] : " إنه كان يسكن "الحيرة" ويدخل الأرياف ، فثقل لسانه ، واحتمل عنه شيئ كثير جدا ، وعلماؤنا لا يرون شعره حجه " .

وكان " أمية بن أبى الصلت " من شعراء القرى العربية - كما رتبه " ابن سلام " - كان من " الطائف " ،و " أهل الطائف " فى طرف" [2] أى فى مكان بعيد .

ويبدو الإعتبار المكانى أيضا فيما ورد بالنسبة لـ " الكميت " و " الطرماح " من أنهما كانا من أهل السواد .

---

[1] الشعر والشعراء : ٣٤

[2] طبقات فحول الشعراء : ١٠١ طـ١ دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٩٨٢م

يقول " الأصمعى " عن " الكميت "[1] : " إنه نشا " بالكوفة " فلا يكون مثل أهل البدو ، ومن لم يكن من أهل الحضر " وكذلك الحال بالنسبة لـ "الطرماح" فيما حكاه عنه "أبو عمرو بن العلاء" أنه رآه بسواد "الكوفة"[2] وأورد " القاضى الجرجانى " فى " وساطته " قول " الأصمعى "[3] عن "الكميت " إنه " جرمقانى "[4] من جراميق " الشام " لا يحتج بشعره .

أما الإعتبار الثانى فهو إعتبا ثقافى فى قول " ابن قتيبه " السابق عن " عدى بن زيد "

وعن " أمية بن أبى الصلت " يقول " ابن قتيبه "[5] : " قد قرأ الكتب المتقدمة ، ورغب عن عبادة الأوثان ... وأتى بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب ... وكان يأخذها من الكتب ، منها قوله :

" وخان أمانة الديك الغراب " .

وقال خلف الأحمر[6] : " رأيت " الكميت " فى مسجد الكوفة يعلم الصبيان " .ويقول الأصمعى[7] عن " الكميت " إنه " كان من أهل الكوفة فتعلم الغريب ، وروى الشعر ، وكان معلما ، وتعلم النحو " .

---

(1) فحوله الشعراء : ٤٦ الموشح للمزبانى : ٣٠٢
(2) السابق : ٣٢٥ – ٣٢٦
(3) الوساطة : ١٠
(4) ورد فى القاموس أن " الجرامقة " قوم من العجم صاروا بالموصل فى أوائل صدور الإسلام الواحد " جز مقانى "
(5) الشعر والشعراء : ١٠٧
(6) السابق ١٣٩
(7) فحولة الشعراء : ٤٦

ويروى " أبو عمرو بن العلاء "[1] أنه رأى "الطرماح" وهو يكتب ألفاظ النبيط ، ويتعلمها ، ليدخلها فى شعره .

وعلى أيه حال فهذا أن الإعتباران لم يكونا مرادين لذاتهما وإنما من حيث ما يترتب عليهما من أتصاف أولئك الشعراء بسمات خاصة لاحظها العلماء وسجلوها ، وهذه السمات ترتب عليها وجود لون من المباينة بين لغات أولئك الشعراء ولغات غيرهم . ويلاحظ هذا من قول " الأصمعى "[2] عن " عدى بن زيد " " وابن أبى دؤاد " (إن ألفاظهما ليست بنجديه)

وذكر ابن سلام فى " طبقاته "[3] أن " عدى بن زيد " كان يسكن " الحيرة " ومراكز الريف ، فلا من لسانه ، وسهل منطقة فحمل عليه شيئ كثير ، وتخليصة شديد ... "

وروى عن " أبى عمرو الشيبانى " عن " المفضل " قال [4] : " كانت الوقود تفد على الملوك بالحيرة ، فكان " عدى بن زيد " يسمع لغاتهم فيدخلها فى شعره " .

وكان أمية بن أبى الصلت " يأتى بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب وكان يأخذها من الكتب المتقدمة ، منها : تسمية السماء باسم " صاقورة " و " حاقورة " و " الثغر " باسم " الثغرور "[5] .

---

(1) راجع الموشح : ٣٢٥ ، ٣٢٦
(2) فحولة الشعراء ٤٣
(3) طبقات فحول الشعراء ١١٧ دار المعارف ١٩٥٢م
(4) الموشح : ١٠٣
(5) الشعر والشعراء : ١٠٧

وكانت هذه الأشياء موضع إنكار من " ابن قتيبه " . والمطالع "للموشح"[1] يرى مآخذ العلماء على كل من " الكميت " و " الطرماح بن حكيم " فكانا يقولان ما قد سمعاه ولا يفهمانه . قال رؤبة : كانا يسألاننى عن غريب شعرهما . وحدث " الأصمعى " عن " خلف " قال : سمعت " رؤية بن العجاج " يقول (لقينى "الكميت " و " الطرماح " فسألانى عن الغريب ثم سمعته فى شعرهما بعد).

وروى " محمد بن سهل " عن " الكميت " قال : " سمعت " الكميت " يقول : إذا قلت الشعر فجاء نى أمر مستو سهل " لم أعبا به حتى يجيئ شيئ فيه عويص فأستعمله "

وقالوا عن " الكميت " [2] : " إنه يصف الأشياء على السماع دون رؤية " . وهذا الاعتراف من " الكميت " يعد تبريرا لما لاحظه عليه معاصره " ذو الرمة " من عدم الدقة فى الوصف لعدم الدقة فى استعمال الألفاظ ، والمطالح للموشح يرى هذا[3] .

ولعل هذه بعض السمات التى جعلت اللغويين لا يحتجون بشعر الشعراء فى الاحتجاج اللغوى .

وقد نظروا إلى " الكميت " على أن علمه ولغته قائمان على التعلم وليس على النشاة العربية أو التبدى الذى يمكن أن يكون شفيعا له فى مثل هذه الحالة ، وكذا الحال بالنسبة "للطرماح بن حكيم " .

---

[1] الموشح : ٣٠٢ ، ٣٠٣
[2] السابق : ٣٠٧
[3] السابق ٣٠٧

فقد كان علمة ولغته قائمين على التعلم ، فضلا عن أنه أدخل الغريب في شعره ، دون إدراكه وفهمه ، كما أدخل الألفاظ الأجنبية وبخاصة " النبطية " في شعره .

فثقافته اللغوية مكتسبة – وهذا على خلاف المطلوب في لغة الشعراء الذين يمكن الإحتجاج بشعرهم – وأضاف إليها ألفاظا ليست عربية أصلا .

وجاء التركيز على العاملين السابقين : المكاني والثقافي ، لما لهما من أهمية دون غيرهما في قبول أو رفض الاحتجاج بالشاعر .

ولا ينظر في هذا الجانب إلى أصل الشاعر وجنسه من عدم انتسابه للعرب ، إذ لا يقدح كل منهما في شرعية الاحتجاج بلغته مادام قد له شرط البعد عن كل المؤثرات الأجنبية ، وشرط البيئة اللغوية النقية . وهذا يعني أن هذه الإعتبارات لا تراد لذاتها بل لما يترتب عليها من احتمال أو توقع عدم خلوص لغة الشاعر ، وعدم صفاء ونقاء عربيته كذلك .

ومن هنا جاءت ميزة الشعر القديم في ساحة الإحتجاج اللغوي من وجهة نظر النقاد بغض النظر عن المستوى الفني .

وعلى أيه حال فالمتكافئ في هذا هو سلامه اللغة ونقاؤها ، وبعد أهلها الأصليين عن المؤثرات الأجنبية ، وعدم تعرضهم لألوان الثقافة غير العربية تعرضا ينال من لغتهم ، أو يؤثر عليها .

فالإقامـة فـى الصحـراء وحدهـا لا تكفـى ، والأخـذ عـن أهـل المدرمشروط ببقائهم على فصاحتهم دون التـأثر بمؤثرات خارجيـة ، يستوى فى ذلك أهل المدر والوبر.

يقول " ابن جنى "[1] إن " علة امتناع الأخذ عن أهل المدر كما يؤخذ عن أهل الوبر ما عرض للغات الحاضرة ، وأهل المدر من الإختلاط والفسـاد ولو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم لم يعرض للغتهم شيئ من الفسـاد لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر ، وكذلك لو نشا فى أهل الوبر مـا شارع فى لغة أهل المدر من الخلل والفساد لوجب رفض لغتها " .

فالنقاء اللغوى شرط أساسـى فـى الاحتجـاج بالشـعر القديم ، دون النظـر إلـى الناحية الفنية ، وبخاصة فـى شـعر بعـض القبـائل ، نظـرا لوجـود الاعتبـارين السابقين .

فلابد أن يكـون الشـعر خاليـا مـن المؤثـرات الأجنبيـة ، وألا يكـون متعرضا لثقافات غير عربية ، وهذا هو المراد بعدم الفساد ، وهـذا هـو السـر فى الإحتجاج بشعر القدماء دون غيرهم .

ونظـرا لإنعـدام الشـرطين السـابقين بالنسـبة للشـعراء السـابقين مـن الجاهلين والإسلاميين – رفض اللغويون الإحتجاج بشعرهم .

ولمـا فشـا اللحـن نتيجـة اختـلاط العـرب بغيرهم مـن الأمـم الأجنبيـة الأخرى وصارت العربية بالتعلم والإكتساب لا بالفطرة والسليقة .

---

(1) الخصائص تحقيق محمد على النجار جـ٢ : ٥ دار الهدى للطباعة والنشر بيروت لبنان

وشاع هذا بين معظم الشعراء وضع اللغويون لأنفسهم حدا زمنيا يتوقفون عن الاحتجاج بأشعار الشعراء الذين يتأخرون عنه .

فالحد الزمنى لم يحمل دلالة زمنية بالمعنى المفهوم للتمييز بين القديم والحديث وإنما كان يحمل – فى الحقيقة – دلالة مكانية ، وحضارية معينة فقد رأوا أن الزمان المتأخر ازداد فيه الإختلاط بين الشعوب المتأخرة فى الرقعة الإسلامية حتى انعدم الشرطان السابقان ، ومن ثم كان التهاون فى شرط الزمن ، تهاونا فى شرط النقاء اللغوى الذى كان المحك بالنسبة لهؤلاء النقاد اللغويين فى الاحتجاج بلغة الشاعر من عدمه ، دون النظر إلى المستوى الفنى للشعراء ، ودون أن يذكر وصراحة أن من رفضوا الاحتجاج بشعرهم كانوا أقل فى درجة الشاعرية ممن قبلوا الاحتجاج بهم .

ولا ينظر فى الإحتجاج بلغة الشاعر إلى جنسه ، لأن العبرة بالنقاء اللغوى .

فكم من شاعر رجحت كفتهم فى الإحتجاج بلغتهم بعيدا عن جنسهم ، وكانوا أبناء لإماء ، أو من أصول أعجمية ، ومع هذا كانت لغتهم ، وكان شعرهم محل تقدير ، واستشهاد ، من هؤلاء : " عبد بنى الحسماس " و " زياد الأعجم " و " أبو دلامة " و " أبو عطاء السندى " . وكان الشعراء طبقات فى الاحتجاج بلغتهم يقول " الأصمعى "[1]: (" وابن هرمة " ثبت فصيح ، قال " وابن أذينة " ثبت فى طبقة " ابن هرمة " وهودونه فى الشعر ، وقد كان "مالك " يروى عنه الفقة) .

---

[1] فحولة الشعراء ٥٨

ومما ينبغى أن يوضع فى الحسبان فى هذا المقام أن الزمن لم يكن مرادا لذاته ، ولو كان مراد لذاته لما رفض اللغويون الاحتجاج بشعر بعض القبائل الجاهلية ، وهذا مما يؤكد أن العبرة فى الإستشهاد والإحتجاج باللغة هو النقاء اللغوى بعيدا عن الفواصل الزمنية ، وهو ما يقف وراء عدم الاحتجاج بشعر " الكميت " و " الطرماح " من الشعراء الإسلاميين الذين احتج بشعرهم ، ويقف أيضا وراء عدم الإحتجاج بشعر المحدثين عند مدة زمنية معينة يصعب الاطمئنان بعدها إلى خلو لغة الشعراء من المؤثرات الأجنبية .

المبحث الرابع

القيمة الفنية لهذا الشعر

إذا كان النقاد من نحاة ولغويين ورواه قد رفضوا الإستشهاد بشعر بعض الشعراء الجاهليين والإسلاميين بمن فيهم المحدثون والمجددون فى العصر العباسى ، وتوقفوا فى الاحتجاج بشعرهم عند زمن معين دون ما سواه من أجل الإطمئنان على سلامة اللغة ونقائها فإن هذا لا يعنى الطعن فى هذا الشعر فمع عدم الاطمئنان إلى الاحتجاج بلغة أولئك الشعراءؤ بمن فيهم المحدثون ، فإنهم يتمتعون بمكانة عالية من الناحية الفنية ، وهى لا تقل عن المكانة التى كان يتمتع بها الشعراء الذين كانوا محل قبول واطمئنان فى الإحتجاج بلغتهم وشعرهم .

ويحس الناقد بذلك حين يدير ظهره إلى الناحية اللغوية ، ويولى وجهه شطر الجوانب الفنية الحقيقية فى الشعر ، وهذا ما يفسره قبول الإحتجاج بشعر بعض هؤلاء الشعراء "كالطرماح بن حكيم" و "الكميت" بلاغيا وأسلوبيا ، وأيضا قبول الإحتجاج بشعر المحدثين "كبشار" "وأبى نواس" للعلة نفسها .

وكان النقاد يثنون على الشعر الحديث حينا ، وينفرون منه حينا آخر . وقد يكون ذلك على لسان الشخص الواحد "فأبو عمرو بن العاص " كان يحتج على شعر المحدثين فى الوقت الذى يفضل فيه " بشارا " – وهو محدث – على الشعراء فى عدد من الفنون .

كما كان يصفه بأنه : صـحب ابتداءات رائعه ، وقد مات " بشار " بعد " أبى عمرو " ولو أدرك " أبو عمرو " وأحدا من الشعراء أحـدث مـن "بشـار" لأشاد به ، مما يثبت إقتناعه ورضاه بالجديد وقبوله فى الوقت الذى لا يطمئـن للاحتجاج بلغته الشعريةَ .

ولا يغيب عن الأذهان إعجاب " الأصمعى " ببيتى " إسحاق " السابقين ظنا منه أنهما لبعض القدماء ، ولما علم أنهما ، له قال له : أفسدتهما وهذا إن دل على شيئ فإنه يدل على مدى تعصب " الأصمعى " للشعر القديم ، ولكـن عندما ندرك المهمة المزدوجـة التى القاه على عاتق " الأصمعـى " وغيره من علماء اللغـة يبدو ذلك واضحا . فإذا كـان " الأصمعـى " قد رفـض شـعر " إسحاق " عندما علم أنه له فقد رفض أيضا شعر كل من " عدى بن زيـد " و " أبـى دؤاد الإيـادى " مـع علمـه بقدمـه ، كمـا رفـض الكثير مـن شـعر القبـائل الجاهلية ، وها يعنى أن هذه الأشعار لا تصلح للاستشهاد اللغوى ، والاحتجاج بها لغويا لعدم انطباق شروط النقاء اللغوى عليها .

وكان " للأصمعى " موقف من شعراء " إسحاق " بعيدا عن اللغة يقوم على النقد الموضوعى الخالص الذى يبصده بمواطـن التقصـير ، والعيـب فـى صراحة ووضوح ، فضلا عن الاعتراف له بالإحسان بصفة عامة . والمطالع للغانى يدرك مدى إعجاب " الأصمعى " بشعره فى الفخر .

ومن خلال المهمة المزدوجة لذلك الفريق من النقـاد اللغويين يمكـن تفسير موقف " الأصمعى " من كثير من الشعراء ، فإذا كان " الأصمعى " قد رفض الاحتجاج بشعر " الكميت " .

لأنه كان (جرمقانيا من جراميق الشام) ورفض الإحتجاج بشعر "الطرماح " ؛ لأنه كان يدخل ألفاظ النبيط فى شعره ، فإنه فضل " الطرماح " على " النابغة " فى وصف الثور على الرغم من اختراع " النابغة " للمعنى [1]

ويأتى هذا الاعتراف من قبل أولئك النقاد اللغويين الذين رفضوا الاستشهاد بشعر " الطرماح " على المستوى اللغوى .

وقد فضل " الأصمعى " بشارا " على غيره ، وجعله آخر الشعراء ، وهذا لا يعنى انه يعد الآخر فى المستوى الفنى ، فهناك من الشعراء من يعتديهم فى الناحية الفنية بعد ذلك ، ولا يقف هذا عند حد " بشار " وكان من دواعى إعجاب " الأصمعى " به ما استقل به من أسلوب جديد كان فيه مبدعا .

ومن خلال تلك المهمة المزدوجة أيضا يمكن قبول ما روى عن "ابن الإعرابى " دون أن نرى فيه ما يسمى أو يعرف بالتعصب للقديم ضد المحدثين .

فعدم تدوينه لأرجوزة " أبى تمام " بعد علمه بأنها لشاعر محدث دليل قاطع على ما تصوره ذلك الفريق من الدراسين المحدثين من تعصب أولئك النقاد ضد المحدثين ، لكن فى ضوء ما ذكر من خلال ازدواجية تلك المهمة يمكن معرفة حقيقة هذا الشيئ من " ابن الإعرابى " نفسه ، والوقوف عليه .

---

[1] راجع فحولة الشعراء : ٥٧ ، ٥٨

فقد ختم الشعراء بـ " مروان " و " ابن هرمـه " . وكـن يعجب بهما وكلاهما ليس من القدماء . كما أعجب بـ " أبى نواس " وجعله صاحب أمـدح بيت قالـه مولـد ، وأعجب كذلك بـ " إسحاق الموصلـى " و " العباسـى بـن الأحنف " و بشعر " أبى العتاهية "

كل هذا وغيره من شانه يدل على أن أشعار أولئك لمحدثين كانت ماثلة فى أذهان أولئك العلماء وتحت سمعهم وبصرهم ، ينقدونها ، ويبينون الحسن من القبيح فيها ، بغض النظر عن مسألة الزمن التى استند إليها الدارسون المحدثون فى جعل النقاد القدامى فى موقف الرافض لشعر المجدث ولا يغيب عن الأذهان تفضيل " خلف الأحمر " لقصيدة " مروان " على قصيدة " الأعشى " مع حداثه الأول وقدم الثانى ، ومرقفة مع " بشار " واضح فقد كان يأتيه ويكتب عنه شعره ويعظمه .

كل هذا دلائل وأمارات تشير إلـى أنـه لا اساس لصحة ما قيل عن تعصب اللغويين ، والنحويين الأوائل الذين كانوا يقومون بدور النقاد فى زمانهم ضد الشعر الحديث ، وضد التجديد فيه .

غاية ما هناك أن هؤلاء الدارسين المحدثين نظروا إلى توقف اللغويين والنحويين فى الاحتجاج اللغوى عند توقيت زمنى معين ، وعصر معين ، أو شعراء معينين ، وعدوا استمداد الشواهد اللغويـة والنحويـة من الشعر القديم تعصبا ضد هذا الشعر الحديث الـذى جاء بعد هذا التوقيت ، واعتبروا هذا جريا وراء القديم وفى ركابه[1] وليس الأمر كما يتصورون ، ولا يعد هذا إهدارا لشعر المحدثين .

---

[1] ذهب إلى هذا " دكتور شوقى ضيف " فى كتابة " العصر العباس الأول " ١٣٩/١٤٠

الخاتمـــة

لقد وضع الدارسون المحدثون العلماء القدامى من لغويين ونحويين ورواه فى موقف المتعصب للقديم والرافض لكل حديث وجديد .

وقد نظر هؤلاء الدارسون إلى الحد الذى وضعه هؤلاء العلماء فى الاستشهاد بالشعر ، والقول بصحة اللغة وسلامتها ، فما كان قبله يستشهد به ويعتد به ؛ وذلك لتوافر شرط النقاء اللغوى فيه بعيدا عن الخلط والامتزاج بالأمم الأجنبية ، وما كان بعده لا يعتد به ، ولا يستشهد به لعدم توافر هذا الشرط . وقد ارتبط هذا الشرط بوضع زمنى محدد ارتآه هؤلاء العلماء ، فقد وضعوا فى حسبانهم خلو هذه اللغة من الشوائب ، ومن كل ما ينال من مقوماتها وأسسها ، ولا عجب فقد كانوا نقاد أو قضاه الشعر وصيارفته ، وكان هذا الشرط حدا فاصلا بين قديم الشعر وحديثه الذى نجم عن هذا الإمتزاج المفضى إلى تسرب اللحن والعجمة والغموض إلى العربية وآدابها .

وهذا لا يعنى التعصب للقديم ضد كل حديث ، إذ العبرة بتوافر هذا الشرط لا بالوقت الزمنى الذى نظر إليه المحدثون ، ورموا به النقاد القدامى الذين جعلوا الشعر القديم محلا للاستشهاد ، وليس كذلك الحديث لانعدام الشرط المطلوب .

وبمطالعة أراء ومقولات هؤلاء العلماء النقاد تبين انهم لم يقصدوا الزمن لذاته ، ولو قصدوه لذاته لتوقفوا عند حد معين فى الإستشهاد بالشعر ، والإعتراف به ، ولقبلوا كل قديم ، ورفضوا كل حديث وجديد ، وليس هذا على الإطلاق فلم يقبلوا من الشعر إلا ما توافر فيه شرط النقاء اللغوى بغض النظر عن القديم والحديث .

وكان كثير من الشعراء المحدثين موضع إعجاب وإشادة من هؤلاء النقاد ، كما كان شعرهم موضع إعجاب وتقدير كذلك كما سبق القول ، بينما لم يحظ شعر البعض من الشعراء القدامى بهذه الدرجة من الإعجاب والتقدير.

وهذا يعنى أن عنصر الزمن الذى استند إليه المحدثون لا وزن له ، والعبرة فى ذلك بالسلامة اللغوية .

وإذا كانت هذه هى وجهه نظر النقاد القدامى بالنسبة للشعر والشعراء المحدثين والمجددين فى جانب الاحتجاج بهذا الشعر فمن الواجب أن ننظر إلى هؤلاء الشعراء الذين رفض النقاد الاحتجاج بشعرهم لغويا نظرة إنصاف من الناحية الأدبية والفنية ، فقد حظى هذا الشعر بمكانة فنية وأدبية عالية لدى الكثير من هؤلاء النقاد . وينبغى على كل باحث ودارس لنصوص الأدب والنقد القديم أن يتمهل ويتمعن فى قراءتها حتى لا ينظر إلى الموضوع من زاوية ولا ينظر له من زاوية أخرى .

وعلى أيه حال فليس الأمر كما قال الدارسون المحدثون . إن موقف النقاد القدامى فى قضية الاستشهاد بالشعر وعدمه من قبيل التعصب للقديم ضد كل حديث – وإنما المعول فى ذلك هو شرط النقاء اللغوى ، فما توافر فيه هذا الشرط كان محلا للاستشهاد وما انعدم فيه هذا الشرط لم يكن محلا له بغض النظر عن العامل الزمنى، والحد الفاصل كما رأى هؤلاء المحدثون.

أبـــرز المصـــادر والمراجـــع

١. أخبار أبى تمام للصولى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧م.

٢. أخبار أبى نواس لابن منظور طـ مصر .

٣. أعلام الكلام لأبى عبـد اللـه محمـد بـن شـرف القيروانى مطبعـة النهضـة المصرية – نشر مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٢٦م

٤. الأغانى للأصفهانى دار الكتب – الساسى أجزاء ٤ ، ١٠ ، ١٧

٥. البديع لابـن المعتز تحقيق د. محمـد خفـاجى – دار الجيـل بـيروت لبنـان ١٩٩٠م

٦. بلاغة أرسطو بين العرب واليونان د. إبراهيم سلامة طـ ٢ مكتبة الأنجلـو المصرية ١٩٥٢م .

٧. البيان والبتيين للجاحظ جـ ٣ دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

٨. تـاريخ الأدب العربـى (العصـر العباســى الأول) د. شـوقى ضيـف دار المعارف .

٩. التاريخ الأدبى للعرب لنكلسون – صدرت الطبعة الأولى منه ١٩٠٧م

١٠. تاريخ النقد الأدبى عند العـرب منـذ العصـر الجـاهلى إلـى القـرن الرابـع الهجرى لطة أحمد إبراهيم طـ ١ دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٠٩هـ

١١. التراث النقدى عند العـرب رؤيـة تاريخيـة وفكريـة د. عبـد السـلام عبـد الحفيظ طـ١ مطبعة دار البيان بمصر ١٩٨٦م

١٢. الحيوان للجاحظ ٣ تحقيق وشرح عبد السلام هـارون دار إحيـاء الـتراث العربى بيروت لبنان .

١٣. الخصائص لإبن جنى تحقيق محمد على النجار جـ٢ دار الهدى للطباعـة والنشر بيروت لبنان .
١٤. ديوان أبى نواس مطبعة مصر ١٩٥٣م
١٥. دجيوان البحترى : ٢ مطبعة القاهرة ١٩١١م
١٦. ديوان ذى الرمة تصحيح كارليل هنرى عالم الكتب .
١٧. زهر الآداب للحصرى مج ١ جـ ١ طـ٤ شرح د. زكى مبـارك دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة بيروت لبنان .
١٨. الشعر والشعراء لإبن قتيبة طـ ٣ عالم الكتب ١٩٨٤م
* الشعر والشعراء لإبن قتيبة دار المعارف .
* الشعر والشعراء لإبن قتيبة مطبعة بريل فى ليدن ١٩٠٢م
١٩. طبقات الشعراء لابن المعتز دار المعارف .
٢٠. طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى دار المعارف ١٩٥٢ .
* طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى طـ١ دار الكتب العلمية ١٩٨٢ بيروت لبنان
* طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى السفر الأول شرح محمود محمد شاكر طـ المدنى
٢١. العقد الفريد لإبن عبد ربه : ٣ طـ التجارية .
٢٢. العمدة فى صناعة الشعر ونقده لإبن رشيق القيروانى نشر محمد بدر الغسانى مطبعة السعادة القاهرة ١٩٠٧م – العمدة – دار الكتب العلمية – بيروت لبنان .

٢٣. فحولة الشعراء لأبى سعيد الأصمعى تحقيق د. محمد خفاجى ، د. طه الزينى المطبعة المنيرية بالأزهر ط ١ القاهرة ١٩٥٣م

* فحولة الشعراء تحقيق محمد عوده مراجعة د. رمضان عبد التواب مكتبة الثقافة الدينية

٢٤. كتاب التشبيهات تحقيق محمد عبد المنعم خان مطبعة جامعة كمبردج ١٩٥٠م

٢٥. المزهر فى علوم اللغة وأنواعها لجلال الدين السيوطى جـ١ مكتبة صبيح .

٢٦. مشكلة السرقات فى النقد العربى د. محمد مصطفى هداره مكتبة الأنجلو المصرية .

٢٧. الموازنة بين أبى تمام والبحترى للآمدى تحقيق محمد محى الدين ١٩٤٤م

٢٨. الموشح للمرزبانى.

٢٩. النقد الأدبى لأحمد أمين ط٥ مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٣م

٣٠. النقد المنهجى عند العرب د. محمد مندور مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ١٩٤٨م

٣١. الوساطة بين المتنبى وخصومة للقاضى عبد العزيز الجرجانى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، على محمد البجاوى - مطبعة عيسى الحلبى وشركاه .

الفهـــرس

الموضـــــــوع	رقم الصفحة
١. المقدمة	٣١١
٢. تمهيد : اهتمام العلماء القدامى بالعربية وآدابها .	٣١٢
٣. المبحث الأول : موقف قدامى النقاد من هذا الشعر فى ضوء الدراسات الأدبية الحديثة	٣١٧
٤. المبحث الثانى : موقف النقاد بين الحقيقة والخيال	٣٣٤
٥. المبحث الثالث : العوامل التى جعلت الدراسين يضعون النقاد فى هذا الموقف	٣٥٦
٦. المبحث الرابع : القيمة الفنية لهذا الشعر	٣٧٨
٧. الخاتمة	٣٨٢
٨. المصادر والمراجع	٣٨٤
٩. فهرس الموضوعات	٣٨٧